كِتَابٌ جَدِيدٌ لِلْبَاحِثِ الأَلْمَانِيِّ ڤُولْكَر پِيرْتِيس عَنِ الثَّوْرَاتِ العَرَبِيَّةِ

بِقَلَمِ ثَابِتِ عِيدٍ

Autor: Volker Perthes
Titel: Der Aufstand, Die arabische Revolution und ihre Folgen
Verlag: Pantheon, München (Random House (GmbH
November 2011
Erste Auflage
Seiten ٢٢٤

المُؤَلِّفُ: ڤُولْكَر پِيرْتِيس
العُنْوَانُ: الانْتِفَاضَةُ، الثَّوْرَةُ العَرَبِيَّةُ وَتَوَابِعُهَا
دَارُ النَّشْرِ: بَانْتِيُون، مِيُونِخُ (التَّابِعَةُ لِمَجْمُوعَةِ رَانْدُوم هَاوس الأَلْمَانِيَّةِ)
تَارِيخُ النَّشْرِ: نُوفَمْبِرَ ٢٠١١م
الطَّبْعَةُ: الأُولَى
عَدَدُ الصَّفَحَاتِ: ٢٢٤

١ - مُقَدِّمَةٌ

وُلِدَ فُولْكَرُ بيرتيس سنة ١٩٥٨م، وَدَرَسَ في دويسبورج، وبيروت، وميونخ، وبرلين، قَبْلَ أَنْ يتخصّصَ في شؤون الشّرق الأوسطِ والأدنى. وَيعملُ حَالِيًّا مُديرًا لـ «وَقْفِ العِلْمِ وَالسِّيَاسَةِ» في برلين. لَهُ مؤلّفاتٌ كَثِيرَةٌ عَن الشّرق الأوسطِ، ظَهَرَ منها سنة ٢٠٠٧م: «نزهات شرقيّة» في دار «بانتيون»
يتكوّنُ الكتابُ مِنْ مقدّمة (ص٧-١١) وَأَرْبَعَةِ فُصُولٍ: ١- لِمَاذَا الآنَ فَقَطْ؟ (ص١٣-٣٥)، ٢- "الشّعبُ يُريدُ إسقاطَ النّظامِ" (ص٣٧-١٦٠)، ٣- آفاقُ التّغيير (ص١٦١-١٩٩)، ٤- آثارٌ تتجاوزُ العالَم العربيَّ (ص٢٠١-٢١٥).
يقولُ فولكر بيرتيس في مقدّمة كتابه إنّ ثوراتِ العرب بدأتْ بحدثٍ محلّيٍّ في دولةٍ عربيّةٍ صغيرةٍ، هِيَ تونس، ثُمّ تحوّلَ الحدثُ المحلّيُّ إِلَى حَدثٍ إقليميٍّ دوليٍّ وَأَصبحَ لتونسَ الصّغيرةِ تأثيرٌ كبيرٌ في سَائر الشُّعُوبِ العربيّةِ. غَادَرَ الرّئيسُ التّونسيّ بن عليّ تونسَ إلى السّعوديّةِ في ١٤ يناير ٢٠١١م.
وَبَعْدَ وصولِهِ إلى منفاه بأيّامٍ قليلةٍ اندلعتْ مظاهراتُ المصريّينَ في ميدان التّحرير، حَيثُ تظاهرَ عشراتُ الآلاف مِنَ المصريّينَ ضدّ الرّئيس المصريّ حسني مبارك. أسقطَ المصريّونَ رئيسَهم في أقلّ من ثلاثةِ أسابيعَ. عِندئذٍ أدركَ الجميعُ أَنَّ ثورةَ تونسَ لنْ تتركَ بلدًا عربيًّا واحدًا من المحيطِ إلى الخليج بِدون أن تُؤَثّرَ فيه. تستلهِمُ الشّعوبُ العربيّة التّجاربَ والنّجاحاتِ مِنْ بعضها البعض، خَاصّةً أنّها جميعًا تشتركُ في المعاناةِ مِنَ الظّروفِ السّيّئةِ، وَتُطَالِبُ بالتّغيير.
برغم هذا اتّخذتْ تطوّراتُ الأحداثِ في كُلّ بلدٍ عربيٍّ مَسارًا مختلفًا. بالطّبع هناكَ اختلافاتٌ جوهريّةٌ بينَ الأنظمةِ العربيّةِ مِنْ حَيْثُ الدّخلُ القوميّ، والمصداقيّةُ، والشّرعيّةُ. وَلَكِنْ هُنَاكَ

أيضًا فُـرُوقٌ بينَ الأنظمةِ السّياسيّةِ والتّجارب التّاريخيّةِ والتّطوّرات المؤسّساتيّة بينَ الدّول العربيّةِ. وهذا يؤدّي بدوره إلى اختلافاتٍ في الحركاتِ المعارضةِ مِنْ حيثُ مكوّناتها، وكونُ المعارضة تُعبّرُ عن نفسها بطرقٍ متباينةٍ، كَما أنّ الأنظمةَ العربيّةَ تتعاملُ مَع هذه الحركاتِ الاجتماعيّةِ بِأَسَالِيبَ مختلفةٍ. يَجِبُ فهمُ انتفاضةِ النّاس في العالمِ العربيّ على أنّها حدثٌ تاريخيّ كبيرٌ، حدثٌ يمكنُ مقارنته مِنْ حيثُ الأهمّيّة بِمَا حَدَثَ في وَسَطِ أوروبّا وشرقها من تحوّلاتٍ سنةَ ١٩٨٩م. فَهَذِهِ الانتفاضةُ قَدْ أثّرتْ في جميع الدّول العربيّة، لكنّها لم تنتهِ بعدُ. وسوفَ يكونُ التّحوّلُ في البلدان العربيّةِ أَكثَرَ صعوبةً وأكثرَ دمويّةً وأطولَ زمنًا مِمَّا حَـدَثَ في أُوروبّا الشّرقيّةِ مِنْ تَحَوُّلاتٍ. وَلَنْ تكونَ النّتائجُ واحدةً أَوْ متساويةً في جميع أنحاءِ العالمِ العربيّ، حَتَّى وَإِنْ كانتِ الشّعوبُ العربيّةُ قد شعرت بعدَ اندلاعِ الثّوراتِ بمزيدٍ من التّقاربِ فيما بينها. انتفاضةُ العربِ سنة ٢٠١١م مَا هِيَ إِلَّا بدايةٌ لإعادةِ تشكيل المنطقةِ العربيّةِ من جديدٍ. أشارَ المراقبونَ إلى سهولةِ إسقاطِ الدّيكتاتوريّاتِ، وصعوبةِ تشييدِ الدّيمقراطيّاتِ. حَتَّى الانتهاء من كتابة هذا الكتاب، في صيف ٢٠١١م، نجحتِ الانتفاضةُ العربيّةُ في إحداثِ تغييرٍ في نظامِ الحكمِ في ثلاثِ دولٍ عربيّةٍ: تونس، مصر، ليبيا. مهمّة تشييدِ أنظمة ديمقراطيّة حديثة في الشّرق الأوسط والأدنى ستحتاجُ إلى عقدٍ مِنَ الزّمان أو أكثرَ. وهذا سَيُمَثِّلُ بدوره تحديًا لأوروبّا الّتي لا تستطيعُ تحديدَ مسار الأحداثِ في المنطقة العربيّة، لكن سيكونُ بوسعها التّأثيرُ في هذِهِ الأحداثِ.

يشيرُ بيرتيس إلى أهمّيّةِ فهمِ ما يحدثُ الآنَ في المنطقةِ

العربيّةِ من أحداثٍ، وما يمكنُ أن ينشأَ عن هذه الأحداثِ من تطوّراتٍ. وبرغم كون إسرائيل وإيران جزءًا مِنَ الشّرق الأوسط، إلّا أنّ الكاتب استبعدهما من كتابه، لكونهما غيرَ عربيّتين. فكتابه يركّز في المقام الأوّل على الدّول العربيّة، مع الإشارة إلى دول الجوار من حينٍ إلى آخرَ. بل إنّ الدّولَ العربيّةَ من الخليج إلى المحيطِ لا تتمتّعُ بالأهمّيّة نفسها من حيثُ التّأثير في السّياسة الإقليميّة ومجرى التّورات العربيّة الّتي اندلعتْ شرارتها سنة ٢٠١١م. سيكونُ التّركيزُ إذًا على تلكَ الدّول الّتي وصلتْ إليها حُمَّى التّوراتِ العربيّةِ. أمَّا المصطلحاتُ المستخدمةُ لوصفِ هذه التّطوّرات، فيشيرُ فُوْلكَرُ بيرتيس إلى أنّه سيستخدمُ المصطلحاتِ نفسَها المتداولةَ بينَ الأطرافِ العربيّةِ والمراقبينَ في المنطقةِ، أي: «انتفاضة»، «ثورة»، «الرّبيع العربيّ». هذا مَعَ الإشارة إلى اعتبار الكاتبِ لفظ «ربيع»: متفائلًا، وجميلًا، وفيه مبالغة أيضًا. وهو لذلك يُفضّلُ استخدام لفظ «انتفاضة»!

ويُشيرُ فُوْلكَرُ بيرتيس إلى أنّه يفتتحُ كتابَهُ باستعراضِ الخلفيّاتِ السّياسيّةِ الّتي أدّتْ إلى اندلاعِ التّوراتِ العربيّةِ. ثُمّ ينتقلُ بعدَ ذلكَ إلى الدّول العربيّةِ الّتي وصلتْ إليها شرارةُ الثّورةِ، وأنّه يسعى إلى إظهار المشتركِ بينَ الدّول العربيّة مِنْ خلالِ عَقدِ مقارنةٍ بينَ المجرياتِ المختلفةِ نسبيًّا للأحداثِ في شتّى الدّول العربيّةِ. وقدْ خصّ فُوْلكَرُ بيرتيسُ مَا حدثَ في مصرَ، نظرًا لأهمّيّة دورِهَا في العَالَم العربيّ، باهتمامٍ خَاصٍّ. في الفصل الثّالثِ يسعى فُوْلكَرُ بيرتيس إلى وضع سيناريو لما يمكنُ أن يحدثَ في المنطقةِ العربيّةِ. وَفِي ختامِ الكتابِ يستعرضُ فُوْلكَرُ بيرتيس الدّورَ الّذي يمكنُ لأوروبّا

وَالمجتمع اِلدّولـيّ القيام به مِنْ أجل إعادةِ تشكيل منطقةِ الشّرق الأوسطِ.

ويقولُ بيرتيس إنّه يستعرضُ في كتابه الوجيز هذا، عن قصدٍ، ما يدور من أحداثٍ راهنةٍ في منطقةِ الشّرق الأوسطِ. أمّا القارئُ الرّاغبُ في الاستزادةِ، فَلَابُدَّ أن يعودَ إلى كتبٍ ومراجعَ أخرى. فهذا الكتابُ هُوَ «لقطةٌسريعةٌ» لما يحدثُ في المنطقة العربيّة الآن. أَمَّا كتابةُ تاريخٍ شاملٍ لهذه الثّورات المندلعة في البلدان العربيّة الآن، فما زال الوقتُ مبكّرًا لإنجازها في الوقتِ الحالي. أنهى فُوْلكَرُ بيرتيس كتابَهُ في صيف ٢٠١١م. ثُمّ زوّده ببعض المستجداتِ أثناءَ مراجعتِه وتنقيحِه، قبلَ أن يظهرَ في نوفمبر ٢٠١١م.

٢ - مِنْ أَسْبَابِ انْدِلَاعِ الثَّوَرَاتِ العَرَبِيَّةِ

يتساءلُ فُوْلكَرُ بيرتيس عَنْ سَبَبِ اندلاعِ الثّوراتِ العربيّةِ في هَذَا التّوقيتِ بالذّاتِ، وليس مِنْ قبلُ أَوْ مِنْ بَعْدُ. وَهُوَ يشيرُ إلى وجودِ وجهتي نظرٍ مختلفتين كلّيّةً. الأولى كَانَ أصحابها يؤكّدونَ أنّ منطقةَ الشّرق الأوسط لن يحدثَ فيها أيُّ تغييراتٍ جوهريّةٍ على المدى البعيدِ البَتَّةَ، والثّانية يرى أصحابها أنّ هذه المنطقةَ لا يمكنُ أن تستمرَّ عَلَى مَا هِيَ عليه هَكَذَا إِلَى الأبدِ. ثُمّ يُحدّدُ فُوْلكَرُ بيرتيسُ موقفه تجاهَ وجهتي النّظر هَاتين، فيقولُ إنّ الباحثَ المتابعَ للأوضاعِ فِي منطقةِ الشّرق الأوسطِ عَنْ كثبٍ، والمطّلعَ عَلَى «تقارير التّنميةِ البشريّةِ العربيّةِ» الصّادرةِ عَن الأمم المتّحدة: " Arab Human Development Report"، رُبَّما يكونُ قَدْ فُوجِئَ بتوقيتِ اندلاعِ الثّوراتِ العربيّةِ، دُونَ أَنْ تكونَ ضغوطُ التّغيير

الهائلةِ مفاجئةً لَهُ. وَقَدْ تنبّأ فُوْلكَرُ پيرتيس -مِثْلُ كثيرٍ مِنَ الباحثينَ والمراقبينَ - بأنّ المنطقةَ ستشهدُ تغييرًا مَا، حيثُ حذّر سنة ٢٠٠٢م في كتابه: «الحدائقُ الخفيَّةُ. العالَمُ العربيّ الجديدُ» " Geheime Gärten. Die neue arabische Welt" مِنْ إمْكَانِيَّةِ اندلاع انتفاضةٍ عربيّةٍ، إِذَا استمرّ الحكّامُ العربُ في قمع شعوبهم. وفي سنة ٢٠٠٦م نَشَرَ فُوْلكَرُ پيرتيس كِتَابَهُ «نزهات شرقيّة» " Orientalische Promenaden" مُسَجِّلًا فيه ملاحظاته عن بلدان المنطقةِ العربيّة في ساعاتِ ما قبلَ العاصفةِ. يستشهدُ فُوْلكَرُ پيرتيس بأحدِ أساتذة العلومِ السّياسيّةِ في الإماراتِ العربيّةِ المتّحدةِ الّذِي قَالَ لَهُ، بَعْدَ إسقاطِ طاغيةِ مصرَ، إنَّ المفاجأةَ بالنّسبةِ له لَمْ تكن في ثوراتِ ٢٠١١م -الّتي اندلعتْ بعدَ عقودٍ مِنَ الإحباطِ، والإذلالِ، واستبدادِ الحزبِ الواحدِ، والفردِ الواحدِ، بَلْ في أنّ هَذِهِ الثّوراتِ لم تندلعْ قبلَ ذَلِكَ بوقتٍ طويلٍ. فالقاسمُ المشتركُ بَيْنَ دول العالمِ العربيّ تمثّلُ في قياداتٍ حكوميّةٍ سيئةٍ، وانتهاكاتٍ فظيعةٍ لحقوقِ الإنسانِ، وازدراءٍ لكرامةِ الإنسانِ، وفسادٍ بالغٍ ، وَعَدَمِ المساواةِ، وَهضمِ حُقُوقِ النّساءِ والشّبابِ، وَاستبدادٍ شاملٍ.

٣ - الاسْـتِقْرَارُ الزَّائِفُ

يَقُولُ فُوْلكَرُ پيرتيس إنَّ هُنَاكَ أوجهَ تشابهٍ كثيرةً بينَ البلدانِ العربيّةِ، وَمَعَ ذلكَ فهناكَ أيضًا أوجهُ اختلافٍ كثيرةٌ بينَهَا فِيمَا يَخُصُّ الأنظمةَ السّياسيّةَ ، و الظّروفَ الاجتماعيّةَ-الاقتصاديّةَ. فهناكَ مَثَلًا النّظامُ الملكيُّ المحافظُ الموجودُ في منطقةِ الخليجِ العربيّ الّذي يقوم على العائلاتِ المالكةِ هناكَ، ويكاد يكونُ

بدون مراقبةٍ أو مشاركةٍ في السّلطةِ. ولدينا نظام ملكيّ ليبراليّ في الأردن والمغربِ. وهناك جمهوريّاتٌ محكومةٌ بالاستبدادِ والدّيكتاتوريّةِ مثل سوريا وليبيا وتونس حتّى سقوط بن علي سنة ٢٠١١م. وهناك أنظمةٌ تقومُ على التّعدّديةِ، لكنّها ظلّتِ استبداديّةً إلى حدٍّ بعيدٍ، مثل مصرَ مبارك، والجزائر، واليمن. وهناكَ ديمقراطيّةٌ شكليّةٌ مثل العراق، وديمقراطيّةٌ ضعيفةٌ مثلما هو الحال في لبنانَ أو السّلطةِ الفلسطينيّةِ.

اقتصاديًّا يختلفُ متوسّطُ دخل الفردِ فِي الدّول العربيّةِ اختلافًا كبيرًا. فَلَدَيْنَا دولٌ فقيرةٌ مثلُ اليمن، والسّودان مَازالَ متوسطُ دخل الفردِ فيها أقلَّ مِنْ ٢٥٠٠ دولار سنويًّا. وَهُنَاكَ المغربُ، وسوريا، والأردنُ، وَمِصْرُ والجزائرُ، وتونسُ،الّتي يتراوحُ متوسطُ دَخل الفردِ فيها بَيْنَ ٤٥٠٠-٨٥٠٠ دولار سنويًّا. ثُمّ تأتي لبنانُ، وليبيا،والسّعوديّةُ ، وعمان، والبحرين، بمستوى دول وسطِ أوروبّا، حيثُ يتراوحُ متوسطُ دخل الفردِ هُنَاكَ بينَ ١٣٠٠٠ دولار ٢٥٠٠٠ دولار سنويًّا. وَبَعْدَ ذَلِكَ تأتي الكويت، والإمارات العربيّة المتّحدة وقطر،الّتي تنتمي إلى الدّول الأكثر دَخلًا في العالمِ بالنّسبةِ إلى مَا يَحصلُ عَليه الفردُ الواحدُ. المشتركُ بينَ كُلّ هَذِهِ البلدان العربيّةِ هُوَ عَدَمُ المساواةِ في توزيع اِلدّخل بينَ الأفرادِ. تشيرُ الإحصائياتُ إلى زيادةٍ كبيرةٍ في الفجوةِ بَيْنَ الفقراءِ والأغنياءِ مُنْذُ بدايةِ القرن الحَادي وَالعشرينَ. وبرغمِ ثروةِ البترول الموزّعةِ بصورةٍ غير متساويةٍ بينَ الدّول العربيّةِ، يعيشُ نحوَ ٤٠٪ مِنْ مَجْمُوع اِلشّعوبِ العربيّةِ تحتَ خَطّالفقر. أَمَّا الفسادُ، فَقَدِ استشرى في كُلّ صَوبٍ وَحَدبٍ خاصّةً في دوائر صنع القرار. وفي قائمةِ دول العالمِ الأكثر فسادًاالّتي تصدرُهَا

«منظمةُ الشّفافيّةِ الدّوليّةِ» Transparency International احتلّتِ الدّولُ العربيّةُ مراتبَ متقدّمةً جدًّا في الفسادِ. يبدأُ المؤشّرُ بصفرٍ، وهو تصنيفٌ يعني: «فاسدٌ جِدًّا»، وينتهي بدرجةِ عشرةالّتي تعني: «نظيفٌ مِنَ الْفَسَادِ».

حَصَلَتْ قطر والإمارات العربيّة المتّحدة على ٦ من ١٠. وحصلتِ الكويتُ والأردنُ والسّعوديّةُ وعُمانُ وتونسُ على درجة من ٤ إلى ٦ من عشرة، وسائر الدّول العربيّة على أقلّ من ٤ من عشرة، بَلْ إنّ السّودانَ والعراقَ لم تَحصلا إلّا عَلَى أقلّ من ٢ من عشرة. أَمَّا بالنّسبةِ إلى الْحُرّيّاتِ، فَقَدِ اعتادتْ مُنظّمةُ «فريدوم هاوس» الأمريكيّةُ على تصنيفِ الدّول العربيّةِ ضمنَ «الدّول الأقلّ حرّيّةً في العالمِ». وذلكَ باستثناءِ الكويتِ ولبنان والمغربِالّتي صُنّفتْ عَلَى أَنَّها «تتمتّعُ بحرّيّةٍ جزئيّةٍ» فِي الْوَقْتِالّذي اعتُبرتْ فيه سائرُ الدّول العربيّةِ سنة ٢٠١٠م «غير حرّة». والمعارضةُ السّياسيّةُ لا يُسْمَحُ لَهَا بالعمل إلّا في حُدودٍ ضيّقةٍ، ولم تجدْ «منظّمةُ العفوالدّوليّةُ » إِلَّا عَدَدًا قليلًا مِنَ الدّول العربيّةِ بدون معتقلينَ سياسيّينَ.

والحقيقةُ هِيَأَنَّنَا لا نجدُ دولةً عربيّةً واحدةً مِنَ المحيطِ إلى الخليج تتمتّعُ بنظامٍ ديمقراطيّ ليبراليّوطيدٍ. أَمَّا الانتخاباتُ، فقد تعوّدنا على تزويرها في مصرَ وسوريا وتونسَ واليمن. والبرلماناتُ العربيّةُ تكادُ تكونُ بِلَا أيّصَلاحيّاتٍ.

ويقولُ فُوْلكَرُ بيرتيس إنّ الانتخاباتِ عِنْدَ العربِ كانتْ مجرّدَ ديكورٍ أو زينةٍ شكليّةٍ، ولم يُنظرْ إليها أبدًا على أنّها وسيلةٌ وأداةٌ تُستخدمُ لتغيير الحاكمينَ. والملفتُ للنّظر هنا هو أنّ المواطنَ العربيّ البسيطالّذي أشبعَه الحكّامُ العربُ كذبًا وخداعًا وتضليلًا صَار يعي تمامًا مَا يحدثُ مِنْ تزويرٍ

وكذبٍ، فأصبحتْ مشاركةُ المواطنينَ في الانتخاباتِ في مصرَ وسوريا وتونسَ منخفضةً جدًّا لا تتعدّى عشرةً في المئةِ مِنْ هؤلاءِالّذينَ يحقّ لهم التّصويتُ. ويشيرُ الكاتبُ إلى حقيقةٍ مرّة صَارَتْ ظاهرةً مخزيةً مِنْ ظَواهِرِ الاستبدادِ في العالمِ العربيّ، وهي ظاهرةُ شيخوخةِ الطّبقةِ الحاكمةِ في الدّول العربيّةِ. فبعكسِ دولةٍ مثل الصّين،الّتي تقومُ، برغمِ غيابِ الممارسةِ الدّيمقراطيّةِ فيها، بتجديدِ القياداتِ السّياسيّةِ فيها كلّ عشر سنواتٍ بمجموعاتٍ أكثرَ شبابًا وأقلّ سنًا، نَجِدُ أنّ النّخبَ الحاكمةَ في العالمِ العربيّ تبدو وكأنّها خُلقتْ لتبقى في مناصبِها إلى الأبدِ. فطاغيةُ تونسَ بن عليّ ظلّ رئيسًا للبلاد منذ ١٩٨٧م حتّى فراره ٢٠١١م. وبقي مبارك رئيسًا لمصر منذ ١٩٨١م حتّى خلعه ٢٠١١م. أمّا رئيسُ اليمن، فتشبّثَ بالسّلطةِ منذُ ١٩٧٨م،والقذّافي منذ ١٩٦٩م. وحتّى جيل الشّبابِالّذي تولّى الحكَم في بعضِ الدّول العربيّةِ: بشّار الأسد في سوريا، الملك حمد في البحرين، والملك عبد الله في الأردن، والملك محمّد في المغربِ، هذا الجيل أيضًا كانَ قد مرّ عليه في بداية ٢٠١١م أكثر من عشر سنواتٍ في الحكمِ، أيْ أطول من أيّ رئيسٍ أمريكيّ ناجحٍ. فقد ورثوا الحكَم عَنْ آبائهم، واستخدموا الأساليبَ نفسَهاالّتي تجعلُ السّلطةَ والامتيازاتِ والثّروةَ محصورةً في أقلّيّةٍ محدودةٍ من المقرّبينَ والمنتفعينَ. وَهَكذَا تنعدُم الفرصُ أمامَ أيّ شخصٍ آخرَ لا ينتمي إلى هذهالأقلّيّة وَيُريدُ المشاركةَ في تشكيلِ مستقبلِ بلادِهِ.

وَقَدْ دفعَ غيابُ الممارساتِ الدّيمقراطيّةِ عَنِ الدّول العربيّةِ بعضَ المراقبينَ إلى طرحِ السّؤال عَمَّا إذا كانَ العالَمُ العربيُّ

مُحصّنًا ضِدَّ الدّيمقراطيّةِ. وَهَذَا هراءٌ لا محالةَ. والصّحيحُ هو أنّ العالَم العربيّ قد ظهرتْ فيه دائمًا حَركاتٌ تدعو إلى الدّيمقراطيّةِ، ورغبةٌ في الانفتاحِ السّياسيّ وإطلاقِ الحرّيّاتِ، لكنَّ عواملَ داخليّةً وخارجيّةً كانت تحولُ دائمًا دونَ تحقيقِ التّحوّلِ الدّيمقراطيّ المطلوبِ. مِنَ العواملِ الدّاخليّةِ أنّ صادراتِ الغازِ والبترولِ ما زالتْ تمثّلُ العمودَ الفقريّ لاقتصادياتِ المنطقةِ العربيّةِ. فتبلغُ حصيلةُ صادراتِ الغازِ والبترولِ في بعضِ الدّولِ العربيّةِ أكثرَ مِنْ ٦٠٪ مِنَ الدّخلِ القوميّ.وتوفّرُ هذه العائداتُ الضّخمةُ نوعًا من الاستقلالِ من جانبِ الأنظمةِ تجاهَ المواطنينَ: فالنّظامُ ليسَ بحاجةٍ إلى فرضِ ضَرائبَ على المواطنينَ، بل هو يقومُ بتقديمِ دعمٍ اقتصاديّ لهم، يشتري به مطالبهم السّياسيّةَ. وقد قامتْ دولٌ عربيّةٌ غيرِ غنيّةٍ بممارسةِ هذا النّوعِ مِن الاقتصادِ السّياسيّ فترةً طويلةً ، بمساعداتٍ ظلّت تحصلُ عليها من الدّولِ الغنيّةِ بالنّفطِ. بيدَ أنَّ هذه المعادلةَ أو اللّعبةَ أصبحتْ غيرَ مجديةٍ،أَو انحصرتْ في دولٍ غنيّةٍ بعائداتِ النّفطِ، قليلةِ السّكانِ. لكنْ بصفةٍ عامّةٍ تزايدتْ مطالبُ الشّعوبِ العربيّةِ بالحرّيّةِ والدّيمقراطيّةِ والمشاركةِ في الحكمِ، بعدَ ارتفاعِ مستوياتِ التّعليمِ، وظهورِ طبقةٍ متوسّطةٍ كبيرةٍ.

وفي الوقتِالّذي واصلتْ فيه الأنظمةُ العربيّةُ ممارسةَ سياسةِ القمعِ والقهرِ تجاهَ شعوبِهَا، شهدتِ المجتمعاتُ العربيّةُ نوعًا مِنَ الانفتاحِ والتّعدّديّةِ، خاصّةً في الأجيالِ الصّاعدةِالّتي حصلتْ على قدرٍ مِنَ التّعليمِوالثّقافةِ يفوقُ ما حصلتْ عليه الطّبقاتُ الحاكمةُالّتي أصيبتْ في تلكَ الأثناءِ بالشّيخوخةِ والهرمِ. وَكانَ للفضائياتِ والإنترنتِ دورٌ كبيرٌ في سرعةِ

نشر المعلوماتِ وتداولِها. وَلَمْ تكن الموضوعاتُ الّتي عالجتها الفضائياتُ جميعها جديدةً. بل كانَ هُنَاكَ مناقشاتٌ حاميةٌ طوالَ السّنواتِ السّابقةِ للثّورةِ حولَ أساليبِ الحكمِ، وحقوق الإنسانِ، وشرعيّةِ الدّولةِ، والتّوزيعِ العادلِ للسّلطةِ والفرصِ. وَيُوجّهُ فُولْكَرُ بيرتيس نقدًا مباشرًا إلى الغربِ بصفةٍ عامّةٍ، حيثُ يقولُ: مِنَ الحقائقِ المريرةِ أنّ السّياسةَ الّتي انتهجها الغربُ في المنطقةِ العربيّةِ لم تُساهمْ في دفعِ المجتمعاتِ العربيّةِ نحوَ الدّيمقراطيّةِ. ويضيفُ إلى ذلكَ قائلًا: قَدْ يعترضُ بعضُهم بأنّ هذه ليستْ من واجباتِ الغربِ أو أيّ قوّةٍ أجنبيّةٍ أخرى. والرّدّ على ذلكَ بسيطٌ، وَهُوَ أنّ أوروبّا والولاياتِ المتّحدةَ الأمريكيّةَ لم تتوقّفا عَنِ الحديثِ عن تشجيعِ دمقرطةِ المنطقةِ العربيّةِ. وكانَ هناكَ برامجُ طُرحتْ في إطار «شراكةِ الاتّحادِ الأوروبيّ مَعَ دولِ البحر المتوسّطِ» ساهمتْ بِلَا شَكٍّ في الدّفاعِ عن حقوقِ الإنسانِ، وحرّيّةِ الصّحافةِ، في الدّولِ العربيّةِ.

يُهِمُّنَا أَنْ نُسَجِّلَ هُنَا مُلاحَظَةً تكميليّةً بخصوصِ مَوْقِفِ الغربِ مِنَ الدّيكتاتوريّاتِ العربيّةِ. فَفِي دراسةٍ للباحثِ السّويسريّ الرّاحلِ فيكتور كوخر بعنوان: «أزمةُ القيمِ في السّياسةِ الغربيّةِ في الشّرقِ الأوسطِ»، نشرتْ ترجمتها العربيّةَ عَلى موقعِ «حزبِ العملِ المصريّ»، يُشيرُ كوخر إلى كتابٍ هَامٍّ للباحثِ الفلسطينيّ-الأمريكيّ سعيد أبي الرّيش، عالجَ فيه هذا الموضوعَ باستفاضةٍ. يقولُ فيكتور كوخر: «إنّ الدعوى الاستفزازيةَ التي طرحها المثقفُ الفلسطينيُّ سعيد أبو الريش مثيرةٌ للقلقِ، حيثُ يقولُ: "... إنّ سببَ الاضطرابِ في الشرقِ الأوسطِ يعودُ إلى أنّ الحكّامَ العربَ المهدّدينَ اليومَ قد

ضحُّوا بصورةٍ متكرّرةٍ برفاهيةِ المواطن العربيّ العاديّ، وبحقوق الرَّجل البسيطِ وكرامتِهِ، مِنْ أجل صداقتهم الوحشيةِ مَعَ الغَرْبِ"». وكتابُ أبي الرّيشِ هَذَا منشورٌ باللّغةِ الإنجليزيّةِ، وعنوانُهُ هُوَ: «صداقةٌ وحشيّةٌ. الغربُ والنّخبةُ العربيّةُ » Saïd K. Aburish, "A Brutal Friendship. The West and the Arab Elite". Indigo, London 1998.

وَنَتَوقّفُ هُنَا قَلِيلًا لنستعرضَ الدّورَ الّذي يُمكنُ أنْ يقومَ به المفكّرُ الباحثُ في مجتمعِهِ ومحيطِهِ، مِنْ خلال عقدِ مقارنةٍ سريعةٍ بينَ ما مَارَسَهُ المستشرقُ الصّهيونيّ برنارد لويس مِنْ تأثيرٍ سلبيّ عَلَى صَانعي القرار في الغَربِ عُمومًا، والولاياتِ المتّحدةِ خصوصًا من ناحيةٍ، وما يمكنُ أنْ يقومَ به مُؤَلِّفُنَا فولكر بيرتيس من تأثيرٍ بنّاءٍ في دوائر صنَاعةِ القرار في أوروبّا مِنْ ناحيةٍ أخرى. فَفِي الماضِي القريبِ كَانَ كثيرٌ مِنْ مفكّري الغَربِ يستخدمونَ الإسلامَفزّاعةً ، لتخويفِ الغربيّينَ مِنَ المسلمينَ والعربِ. لكنْ بعدَ اندلاعِ الثّوراتِ العربيّةِ هناكَ ما يُشيرُ إلى تجاوز هذِهِ المرحلةِ، وبدءِ عصرٍ جديدٍ «عصر ما بعدَ الفزّاعاتِ الإسلاميّةِ». الثّوراتُ العربيّةُ تُعتبرُ أكبرَ ما تواجهه إسرائيلُ من تحدّياتٍ. فقدِ انكشفَ الآنَ كُلُّ شيءٍ. إسرائيلُ كانتْ أكبرَ مستفيدٍ من الدّيكتاتوريّاتِ العربيّةِ، وَمَع ذلكَ كانتْ لا تكفّ عن استعطافِ الغربيّينَ بادّعاءِ أنّها «الدّولةُ الدّيمقراطيّةُ الوحيدةُ، وسط غابةٍ مِنَ الأنظمةِ الاستبداديّةِ، في الشّرق الأوسطِ». كانَ المنطقُ يقتضي أن يُشجّعَ المرءُ نشرَ القيمِ الّتي يؤمنُ بها. لكنَّ الأمرَ هُنَا يتعلّقُ بتوظيفِ كلّ شيءٍ من أجل مُواصلةِ استعبادِ شُعوبِ المنطقةِ

العربيّةِ. برنارد لويس وفولكر بيرتيس يمثّلان نموذجين مختلفين كلّ الاختلافِ. الأوّلُ لم يكفّ عن تحريضِ الغربِ، ليحاربَ المسلمينَ، ويقهرهم، والثّاني يدعو الغربَ إلى التّحالفِ مع المسلمينَ. الأوّلُ يدعو إلى أفكارٍ عنصريّةٍ، والأخيرُ يريدُ الخيرَ للإنسانيّةِ جمعاءَ. الأوّلُ وظّفَ معارفَهُ لتلطيخِ سمعةِ أكثر من مليارٍ ونصفِ مليار مسلمٍ، والثّاني يسعى إلى توظيفِ علمِهِ من أجلِ خيرِ الإنسانِ في كلّ مكانٍ. الأوّل يُفَرّقُ بينَ المسلمِ والمسيحيّ واليهوديّ، والثّاني يريدُ أن يُقرّبَ بين العبادِ والبلادِ. يقولُ رؤوف عبّاس: «(...) ولكنْ هيهاتَ أن يُدركَ القارئُ أَنَّ مَا يُقدّمُهُ برنارد لويس عَن الإسلامِ له شبهةٌ موضوعيّةٌ ونزاهةٌ ، وخلوٌّ مِنَ الغرضِ، والتزام الحقيقة السّاطعة كَمَا جاءت في مَظَانّـِها، بَلْ يجدُ القارئُ نفسَهُ يتعاملُ مَعَ رسالةٍ "سياسيّةٍ" تطفحُ بالكراهيةِ للإسلامِ والمسلمينَ، وخاصّةً العربَ، وتفيضُ بالانحيازِ للصّهيونيّةِ. يبدو ذلكَ واضحًا في كُلّ مَاألّفه لويس بَعْدَ الحربِ العالميّةِالثّانيةِ، ويتّخذُ صورةً فجّةً في كتابيه: "أين الخطأ"، و"أزمة الإسلامِ"، على وجهِ الخصوصِ.فَقَدْ كَانَ الكِتَابُ الأوّلُ يُطبعُ عِنْدَمَا وَقَعَ حادثُ ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، وصدرَ في غُضون الأسابيعِالّتي تلته، فتخاطفته الأيدي، ولقي اهتمامًا واسعًا. فتعدّدتِ العروضُالّتي كُتِبَتْ عنه فِي الصّحفِ والمجلّاتِ؛لِأَنَّهُ قَدَّم الإسلَام والمسلمينَ في إطارٍ معيّنٍ باعتبارهم "خطرًا" موجّهًا ضِدَّ الغربِ، وَأَكّدَ عداءَ الإسلامِ للمسيحيّةِ، بل رفضه لغيره مِنَ الأديانوالثّقافاتِ الأخرى، وذهبَ إلى أنّ المسلمينَ يُعادونَ السّاميةَ بدليل موقفهم الرّافضِ لدولةِ إسرائيلَ. وأوردَ في خاتمةِ الكتابِ نفسَ

المقولاتِ الّتي جاءتْ بكتبه السّابقةِ، فالمسلمونَ لا يُحسنونَ استيعابَ ما اقتبسوه مِنَ الغربِ، فباءتْ مساعيهم للحاق بركبِ المدنيّةِ الحديثةِ، مدنيّةِ الغربِ، بالفشلِ الذّريعِ، فراحوا يبحثونَ عن "كبشِ فداءٍ" هُنَا وَهُنَاكَ، لتبريرِ تَخَلُّفِهم، وعجزهم وقصورهم، ويصبّونَ جامَ غضبِهم عَلى الغربِ، دونَ أن يُدركوا ما وقعوا فيه من أخطاءٍ، هِيَ - عندَهُ - رفضُ الحضارةِ الغربيّةِ والعداءِ للسّامِيَّةِ. وينتهي إلى نتيجةٍ واحدةٍ: فالمسلمونَ قومٌ أوغادٌ بطبعِهم، يكرهونَ الآخرَ، ويُريدونَ ذبحَ الغربِ واليهودِ انتقامًا لعجزهموتخلّفهم. وَجَاءَ حادثُ ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، ونسبته إلى "القاعدةِ"، ليجعلَ من برنارد لويس فيلسوفَ مَا يُسمّى "الحربَ ضِدَّ الإرهابِ"، وَبَاتَ الإرهابُ - في نظر الرّأي العامِّ الغربيّ- يُمَثِّلُ الوجهَ الآخرَ للإسلامِ، بفضل أبواق الدّعايةِ الإعلاميّةِ، و"حكمةِ" برنارد لويس، وجهودِ تلاميذِه من أقطابِ اللّوبي الصّهيونيّ المهيمن على حَقل دراساتِ الشّرق الأوسطِ بالولاياتِ المتّحدةِ الأمريكيّةِ من أمثال: مارتن كريمر Martin Kremer، وستانلي كيرتز Stanley Kurtz، ودانيال پاپيس Daniel Pipes، وغيرهم. ونشط برنارد لويس خلالَ عَامَي ٢٠٠١م-٢٠٠٢م في إلقاءِ المحاضراتِ، وكتابةِ المقالاتِ، أو إعادةِ ترتيبِ مادّةِ بعضِ المقالاتِ،ثُمَّ نشرهَا بعناوينَ جَديدةٍ (تمامًا كَمَا فعلَ فيكتبِهِ)، ليزرعَ في أذهانقُرّائِهِ وسامعيهِ أنّ مَا حدثَ في ١١ سبتمبر ٢٠٠١م ليسَ غَريبًا، بَلْ يُعبّرُ عَن جَوهر الإسلامِ والمسلمينَ، فالدّينُ الإسلاميُّ جَعَلَ "الجهادَ" فريضةً عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، والجهادُ يعني القَضاءَ عَلَى غَيْر المسلمينَ باعتبارهم كُفَّارًا. وَفِي عَامِ ٢٠٠٣م جَمعَ برنارد

لويس مَادّةَ تلكَ المقالاتِ والأحاديثِ والمحاضراتِ، وَأَعادَ ترتيبها ترتيبًا يتنافى مَعَ مَا سبقَ أن أوردنا من حديثه عَن "الموضوعيّةِ"، و"النّزاهةِ"، والتزامِ "الحيدةِ"، فيبدو التّحيّزُ ضِدَّ الإسلامِ والمسلمينَ واضحًا مِنَ العنوانِ الّذي اختاره للكتابِ "أزمة الإسلامِ، حربٌ مقدّسةٌ، وإرهابٌ غير مقدّسٍ". وَقَدْ سبقَ أن قمنا بدحضِ افتراءاتِ لويس الّتي جاءت في كتابه "أين الخطأ؟"، وَبَيَّنَّا فسادَ ما توصّلَ إليه من نتائجَ، استنادًا إلى أعمالِ مؤرّخينَ يُنسبونَ إلى الغربِ، ونشروا أعمالهم بالإنجليزيّةِ والفرنسيّةِ، وسوفَ نتناولُ كتابَ "أزمةِ الإسلامِ" بنفسِ المنهجِ، معتمدينَ - أيضًا - على كتاباتٍ لبعضِ المستشرقينَ المشهودِ لهم بالتّعمّقِ في فهمِ الإسلامِ، وأهلِهِ، وثقافتِهِ، ومعرفةِ مصادرِ دراستِهِ، وامتلاكهم لناصيتها، ولم نشأِ الاستشهادَ بأعمالِ المؤرّخينَ العربِ والمسلمينَ المحدثينَ حتّى نضعَ عملَ لويس في إطارِ أدبياتِ الاستشراقِ، ليقفَ القارئُ على وزنه الفعليّ بينَ تلكَ الأدبياتِ». ا. هـ. (انظر: مقدّمة التّرجمة العربيّة لكتاب: برنارد لويس، الإسلام وأزمة العصر، حرب مقدّسة وإرهاب غير مقدّس، ترجمة أحمد هيكل، تقديم ودراسة: رؤوف عبّاس، المجلس الأعلى للثّقافة، القاهرة ٢٠٠٤م).

نَعُودُ إلَى مُؤلّفِنَا، فنقولُ: يُشيرُ ڤُولكَرُ بيرتيس إلى مَا حدثَ للفظِ «الدّيمقراطيّة» من إساءةِ استخدامٍ، بل واغتصابٍ. فغزو العراق سنةَ ٢٠٠٣م قد تمّ بذريعةِ الإسهامِ في نشر الدّيمقراطيّةِ في منطقةِ الشّرق الأوسطِ. وهذا تضليلٌ واضحٌ. والأنكى من هذا أنّ هذه الأضاليلَ الفاجرةَ مازلتْ تُمارَسُ حتّى يومنا هذَا، حيثُ يدّعي بعضُهم مثلًا أنّ إسقاطَ صدّام

حسين بمساعدةٍ خارجيّةٍ قد ساهَم في إشعالِ الثّوراتِ العربيّةِ سنةَ ٢٠١١م. بيد أنّه مِنَ السّهولةِ بمكانٍ إثباتُ عكسِ ذلكَ.

فبرغمِ أنّ حربَ العراقِ سنةَ ٢٠٠٣م قدْ أسقطتْ بالفعلِ ديكتاتورًا كبيرًا، إلّا أنّ هذه الحربَ قد أطالتْ أيضًا من عمرِ الحكّامِ المستبدينَ في المنطقةِ العربيّةِ، ناهيك عن دفعِ العراقِ إلى حربٍ أهليّةٍ مميتةٍ طوالَ هذه السّنينَ. والأكثرُ مِنْ هَذَا أنّ المؤسّساتِ الدّيمقراطيّةَالّتي أقامتها القوةُ الاستعماريّةُ هناكَ لا يمكنُ الادّعاءُ بأنّها تعملُ بصورةٍ نموذجيّةٍ. ولم يكنْ بشّار الأسد الوحيدَالّذي أشارَ إلى الفوضى الدّمويّةَالّتي حدثتْ في العراقِ بعدَ الغزوِ الأمريكيّ سنة ٢٠٠٣م، من أجلِ إقناعِ مواطنيه بأنّ الاستبدادَ أفضلُ لهم بكثيرٍ مِنْ تِلْكَ الدّيمقراطيّةِ المستوردةِ.

وَالملفتُ للنّظرِ فيمَا حَدثَ قبلَ اندلاعِالثّوراتِ العربيّةِ سنةَ ٢٠١١م هُوَ أنّ الغربَ،ممثّلًا في الولاياتِالمتّحدةِ وأوروبّا، لم يكنْ له أيُّ دورٍ في هذا الحدثِ التّاريخيّ. أمّا روسيا والصّينُ، فلم يسبقْ لهما تشجيعُ الدّيمقراطيّاتِ في أيّ مَكَانٍ في العالمِ. فمنذُ هجماتِ سبتمبرَ ٢٠٠١م، وبعدَ ذلكَ سنةَ ٢٠٠٣م، لم نسمعْ مِنَ الولاياتِالمتّحدةِبالذّاتِ إلّا شيئًا واحدًا هُوَ: «الحربُ على الإرهابِ»، والبحثُ عَنْ حُلفاءَ يؤيّدونَ هَذِهِ السّياسةَ في منطقةِ الشّرقِ الأوسطِ،ويوفّرونَ الاستقرارَ المطلوبَ في هذه المنطقةِ الهامّةِ بالنّسبةِ للغربِ. كَانَ هُنَاكَ بالإضافةِ إلى هَذَا مخاوفُ غربيّةٌ مِنْ تزايدِ نفوذِ إيرانَ، وانتشارِ الحركاتِ الإسلاميّةِ، والهجرةِ غيرِ الشّرعيّةِ لأوروبّا. صَحِيحٌأَنَّ الْغَرْبَ كَانَ يحثّ الدّولَ العربيّةَ علانيّةً عَلَى عَمَلِ إصلاحاتٍ سياسيّةٍ، واحترامِ حقوقِ الإنسانِ. لكنّ

الرّسالةالّتي قُهِمَتْ فِي القاهرةِ، وتونسَ، والرّياضِ، والرّباطِ، ورامَ اللهِ، ودمشقَ، كانتْ مختلفةً: مَنْ يتعاون في الحَربِ على الإرهابِ، ويساعد في الاحتفاظِ باستقرار المنطقةِ، سيتّم اعتبارُه شريكا، أو بلغةِ السّياسةِ الأمريكيّةِ، «لاعبًا معتدلًا»، بصرفِ النّظر عن طريقةِ معاملتِه لمواطنيهِ. وَمَنْ لا يتعاون، فهو يواجه خطرَ أو سيفَ مطالبةِ الغربِ له بدمقرطةِ بلدِهِ!! وهذا يرينا أنّ الغربَ كانَ يُمارسُ سياسةً تشجّعُ الاستبدادَ، وَتُعَادِي الدّيمقراطيّةَ!!

وَقَدْ أظهرَ الحكّامُ العربُ إعجابَهُم بِهَذِهِ السّيَاسَةِ الغَربيّةِ!! ليس حبًّا في الغربِ، بل حرصًا على الكرسي، وعلى المصالحِ الشّخصيّةِ. وهكذا أبدى الحكّامُ العربُ استعدادَهم لمحاربةِ القاعدةِ، والتّصدّي لنفوذِ إيرانَ. وَحرصوا عَلَى إِظْهار أنفسِهم تجاهَ أوروبّا كضامنينَ للاستقرار: فالبديلُ عنهم هُوَ استيلاءُ الإسلاميّينَ عَلَى الحكمِ،أَو الفوضى!! وقد نجحَ مبارك وبن عليّ في ذَلِكَ بصورةٍ خاصّةٍ.

وَيُحْسَبُللمؤلّفِ فُوْلكَرُ بيرتيس هُنَا نظرتُه الموضوعيّةُ والمحايدةُ للأمور. فهو يشيرُ إلى تخبّطِ الغربيّينَ في سياساتهم تجاهَ العالمِ العربيّ فيما يخصّ موضوعَ الدّيمقراطيّةِ. فقد طالبتْ دولُ الاتّحادِ الأوروبيّ والولاياتُ المتّحدةُ الأمريكيّةُ بعقدِ انتخاباتٍ في المناطقِ الفلسطينيّةِ. لكنْ عندما فازتْ حماس بهذه الانتخاباتِ في مطلعِ سنةِ ٢٠٠٦م، سارعتِ الدّولُ الغربيّةُ باتّخاذِ مواقفَ عنيفةٍ ضدّ حماس، رافضةً الحوارَ أو التّعاونَ معها إلّا بشروطٍ مُجحفةٍ!! وهذا ما يجعلُ مصداقيّةَ الغربِ في غايةِ الهشاشةِ فيما يخصُّ موضوعَ الدّيمقراطيّةِ. ومع ذلكَ يشير فُوْلكَرُ بيرتيس إلى أنّ دولَ

الاتّحادِ الأوروبيّ كانتْ تأملُ في نشر الدّيمقراطيّةِ في العالمِ العربيّ. فقد كانَ صُنّاعُ القرار في بروكسلَ على وَعي تامّ بأنّ الجمودَ السّياسيّ، والقياداتِ السّيئةَ، ومقاومةَ الإصلاحِ، تمثّل كُلُّهَا خطرًا على المنطقةِ العربيّةِ، وبالتّالي على المصالحِ الأوروبيّةِ في العالمِ العربيّ. لكنّ الأوروبيّين كانوا يأملونَ أن يتّم الإصلاحُ بمبادرةٍ من داخلِ الأنظمةِ العربيّةِ ذاتها. وبالفعلِ جاءَ التّغييرُ مِنْ دَاخلِ المنطقةِ العربيّةِ ذاتها، لكنّه جاءَ بطريقةٍ لم يتوقّعها الحكامُ العربُ، وَلَا شُرَكَاؤهُم الغربيّونَ.

٤ - التَّغْيِيرُ: أَسْبَابُهُ وَأَطْوَارُهُ

أَسْبَابُ الثّورةِ كانتْ موجودةً إِذًا في العالمِ العربيّ منذُ سنواتٍ، إنْ لَمْ يكنْ منذُ عقودٍ. كَمَا أنّ بعضَ مَا وقعَ مؤخرًا من أحداثٍ أدّتْ إلى احتجاجاتٍ في تونسَ ومصرَ وليبيا واليمن والبحرين وسوريا، حدثتْ مِنْ قبلُ، دونَ أن تؤدّي إلى انتفاضةٍ أو سلسلةٍ من الانتفاضاتِ في العالمِ العربيّ. لكنّ التّغيّراتِ التّاريخيّةَ الكبري كانتْ دائمًا تحدثُ نتيجةً لمجموعةٍ معقّدةٍ مِنَ الأسبابِ والأحداثِ الفرديّةِ. بيدَ أنّ العنصرَ الحاسَم في نهايةِ المطافِ يكونُ كيفيّةَ تصرّفِ بعضِ الأفرادِ من الطّرفين. فالثّورةُ لا تتكوّنُ فقطْ مِنَ الثّوّار، بل أيضًا مِنْ نظامٍ يرفضُ التّغييرَ أو يتباطأُ فيه. وَمَعَ ذَلِكَ فينبغي تحاشي إقامةِ علاقةٍ سببيّةٍ بينَ الحدثِ والنّتيجةِ. فانتحارُ بوعزيزة التّونسيّ بإشعالِهِ النّارَ في نفسِه أدّى إلى موجةِ احتجاجاتٍ لم يمكن السّيطرةُ عليها. ومع هذا فقدْ كانَ من الممكن لحادثٍ دراميّ آخرَ أن يؤدّيَ أَوْ لَا يؤدي إلى النّتيجةِ نفسها.

وَالحقيقةُ أَنَّ عواملَ كثيرةً قَدْ ساهمتْ مُنْذُ بدايةِ ٢٠١١م في

تحريكِ الأحوال السّياسيّةِ المتجمّدةِ في المنطقةِ. ومن ذلكَ عواملُ تكنولوچيّةٌ ، واقتصاديّةٌ عالميّةٌ ،وسياسيّةٌ ، واجتماعيّةٌ. كَانَ للفضائياتِ العربيّةِ، ووسائلِ التّواصلِ الاجتماعيّ، دَوْرٌ مُهمّ في انتشار الاحتجاجاتِ بصورةٍ سريعةٍ. وأدّتْ أسعارُ الموادّ الغذائيّةِ المتزايدةُ الارتفاع إلى إشعال مظاهراتِ الفقراءِ. كَما أنّ بعضَ تقارير «ويكيليكس Wikileaks» قد أكّدت مَا كَانَ يدورُ في تونسَ والعالمِ العربيّ من شائعاتٍ وظنونٍ حَولَ فَسَادِ الحكّامِ العربِ. أمَّا العنصرُ الأهمُّ في الثّوراتِ العربيّةِ،فَقَدْ يكونُ العنصرَ السّكانيّ- الدّيموجرافيّ: فالانتفاضةُ العربيّةُ الّتي اشتعلتْ سنةَ ٢٠١١م كانتِ انتفاضةَ شبابٍ في المقامِ الأوّل.

٥- هَلْ كَانَتْ مُجَرَّدَ انتِفَاضَةِ خُبْزٍ؟

حَذَّرَتْ قِلَّةٌ مِنَ الكُتّابِ سنةَ ٢٠١٠م من أزماتِ الموادّ الغذائيّةِ وما يمكنُ أن ينتجَ عنها من اضطراباتٍ في المنطقةِ العربيّةِ، خاصّةً بعدما تضاعفَ ثمنُ القمحِ تِقريبًا في الأسواقِ العالميّةِ خلالَ سنةٍ واحدةٍ، وقدْ أثّرَ هَذا عَلى الأسواقِ المحلّيّةِ في الشّرق الأوسطِ وشمال أفريقيا حيثُ يتّم استيرادُ نسبةٍ كبيرةٍ من الموادّ الغذائيّةِ من الخارج. وتعتبرُ أسعارُ الموادّ الغذائيّةِ في العالمِ العربيّ وإيرانَ موضوعًا حسّاسًا. يبلغُ متوسّطُ ما تنفقُه العائلةُ المصريّةُ على الغذاءِ ٤٠٪ من دخلِها. والخبزُ يتّم دعمُه في كثيرٍ من الدّولِ العربيّةِ. وقد وقعَ ما يُسمّى «اضطراباتِ الخبز» في مصرَ والأردن وغيرهما من الدّولِ العربيّةِ عندما حاولتِ الحكوماتُ العربيّةُ تخفيضَ نسبةِ الدّعمِ. وحدثَ مَا هُوَ أسوأُ من ذلكَ في دولٍ مثل اليمن وتونسَ حيثُ

لم تقتصر المعاناةُ على ارتفاع أسعار الموادّ الغذائيّةِ، كنتيجةٍ طبيعيّةٍ لارتفاع أسعارها في الأسواق العالميّةِ، بل زادَ الطّينَ بلّةً أنَّ العمالةَ التّونسيّةَ واليمنيّةَ في دول الجوار فقدتْ عملَها بسببِ المشاكل الاقتصاديّةِ، وهو ما أدّى إلى ضَررٍ مضاعفٍ: فالأسرُ الّتي كانتْ تعولُها هَذه العمالةُ فقدتِ الدّعَم الماليّ الّذي كانت تتلقّاهُ بانتظامٍ، وهو ما فاقَم من معاناتها. ثُمّ إنَّ هذه العمالةَ قد اضطرّتْ إلى العودةِ إلى بلادِها، تونسَ واليمن، بعدَ أن صارتْ عاطلةً عن العمل، وهو ما ضاعفَ من الضّغوطِ على حكومتي اليمن وتونسَ. يَقِينًا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُحَتَّمِ أَنْ يؤدّي ارتفاعُ أسعار الموادّ الغذائيّةِ وتراجعُ دَخل الأسرةِ إلى اندلاع انتفاضةٍ عربيّةٍ أسقطتْ في فترةٍ وجيزةٍ اثنين من أعتى طغاةِ العالمِ، لكنّهما مثّلا عَاملًا حَاسمًا لتعبأةِ قطاعاتٍ كبيرةٍ مِنَ الشّعوبِ العربيّةِ للتّمرّدِ على استبدادِ الحكّامِ. وقدتجلّى هذا في بعضِ الشّعاراتِ الّتي كانتْ تردّدُهَا الجماهيرُ الثّائرةُ في مصرَ: «عيشٌ، حرّيّةٌ، كرامةٌ إنسانيّةٌ». والملفتُ أنّ كثيرًا من الأنظمةِ العربيّةِ سنةَ ٢٠١١م قَدِ ظنّتْ أنّ ما يحدثُ لا يتعدّى كونه نوعًا مِن «احتجاجاتِ الخبز». فحاولتْ تهدئةَ الجماهير الغاضبةِ بإعادةِ الدّعمِ الحكوميّ الّذي كانتْ قد خفّضته تمهيدًا لإلغائِه، أو بتقديمِ معوناتٍ لمحدودي الدّخل. بيدَ أنّ هذا لم يُجدِ نفعًا، وأثبتَ أنّ الجماهيرَ لم تنتفضْ بسببِ الغذاءِ فقطْ. فقد كَانَ من الواضح أنّ الجماهيرَ الّتي خرجتْ تتظاهرُ ضدّ غلاءِ المعيشةِ، قدْ ربطتْ هذا بمطالبَ أخرى سياسيّةٍ، تعبيرًا عن غضبِها واستيائِها مِنَ الأوضاعِ السّياسيّةِ والاجتماعيّةِ المتفاقمةِ. وأخيرًا فقدْ حدثتْ أيضًا انتفاضاتٌ في دولٍ عربيّةٍ لا تعاني من مُشكلةِ ارتفاع أسعار

المواد الغذائيّةِ.

٦- ثَـوْرَةُ الْفِيسبُـوكِ؟

يدورُ النّقاشُ حَوْلَ «الدّور التّخريبيّ» لـ «قناةِ الجزيرةِ»، مُنْذُ أن بدأتْ بثّها سنةَ ١٩٩٦م. والواقعُ أنّه مُنْذُ أن بدأتْ «الفضائيّاتُ العربيّةُ» في بثّ برامجِها، شَعرتِ القنواتُ العربيّةُ الحكوميّةُ في مختلفِ الدّولِ العربيّةِ بظهور منافسٍ قويّ لها، منافسٌ جعلَ «الرّقابةَ» وسيلةً عفّى عليها الزّمنُ، غيرَ مجديةٍ، لأنّ الأخبارَ لم يعدْ بالإمكان حجبُها بمثل هذه السّهولةِ. ووضعتْ هذه الفضائيات أسسَ «ثقافةِ النّقاشِ»، أو «ثقافةِ المواجهاتِ»، حيثُ ظهرَ المثقّفونَ العربُ وجهًا لوجهٍ مَع صنّاعِ القرار من مختلفِ الدّولِ العربيّةِ، وجعلوا يتجادلونَ في مناقشاتٍ حاميةٍ. وقد أظهرتْ هذه البرامجُ أنّ معارضةَ الاستبدادِ ممكنةٌ، وأنّه من الجائز جدًّا وجودُ وجهاتِ نظرٍ مختلفةٍ حولَ الموضوعِ الواحدِ. مثّلَ هذا في حدّ ذاتِهِ تحدّيًا للأنظمةِ العربيّةِ، واجهته بتأسيسِ قنواتٍ فضائيّةٍ خاصّة بها من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أخرى بتخفيفِ الرّقابةِ قليلًا على الإعلامِ المحلّيّ. لكنّها لجأتْ أحيانًا إلى الوسائلِ القمعيّةِ، حيثُ لم تتردّدْ في إغلاقِ مكاتبِ «الجزيرةِ»، أو تعذيبِ المنشقينَ والمعارضينَ الّذينَ يوجّهونَ سهامَ نقدِهم نحوَ الأنظمةِ العربيّةِ من خلالِ هذه الفضائياتِ. وبجانبِ هذا منحتِ الإنترنتُ ووسائلُ التّواصلُ الاجتماعيّ الجديدةُ، فرصًا جديدةً للأجيالِ الصّاعدةِ للتّعبير عن رأيهم، وتبادل المعلوماتِ، وتنظيمِ المظاهراتِ، والتّعبأةِ لها. وفي ظلّ غيابِ إعلامٍ ليبراليّ حرّ، وجدَ كثيرٌ من أصحابِ الأقلامِ النّقديّةِ، والمطالبينَ بالإصلاحِ،

في النّشر الألكترونيّ متنفّسًا لهم، بعدما ضيّقتْ عليهم الأنظمةُ الاستبداديّةُ الخناقَ في وسائلِ الإعلامِ الحكوميّةِ. وأثبتتْ أحداثُ الثّوراتِ العربيّةِ أهمّيّةَ الرّبطِ بينَ أكثر من وسيلةِ اتّصالٍ حديثةٍ: الصّورُ الملتقطةُ بالتّليفون المحمولِ أو الفيديو وجدتْ طريقَها إلى الإنترنتِ بسهولةٍ، وانتشرتْ بسرعةٍ عن طريقِ الفيسبوكِ وغيره من وسائلِ التّواصلِ الاجتماعيّ، لتصلَ في نهايةِ المطافِ إلى القنواتِ الفضائيّةِ. وسارعتِ الفضائياتُ أيضًا إلى استخدامِ رسائلِ الهاتفِ المحمولِ القصيرةِ الـ SMS والتويتر، لكي يقومَ المشاهدونَ بالتّعليقِ على الأخبار وإكمالِها. وينتقل فُولكرُ بيرتيس بعدَ ذلكَ إلى الإشارةِ إلى دور «قناةِ الجزيرةِ» غير المحايدِ أحيانًا في مساندةِ الثّوراتِ العربيّةِ بالحماسِ نفسِهِ، حيثُ يشيرُ إلى أنّ «قناةَ الجزيرةِ» لم تُبْدِ أيَّ تَحَمُّسٍ يُذْكَرُ تجاهَ انتفاضةِ شَعبِ البحرين، في الوقتِ الّذي أظهرتْ فيه حَماسًا كبيرًا لمناصرة هَذهِ الثّوراتِ في مصرَ، وتونسَ، وليبيا، وسوريا. وَيُشيرُ الكاتبُ إلَى أَنَّ أَكْثَرَ مِنْ ثلاثةِ أرباعِ مستخدمي الفيسبوكِ في مصرَ، وتونسَ، والمغربِ، واليمن، تتراوحُ أعمارهُمْ بَيْنَ ١٦-٣٤ سنةً.

٧- وِلَادَةُ جيلٍ سِيَاسِيّ جَدِيدٍ مَعَ أَحْدَاثِ ٢٠١١م

يَرَى فُولكرُ بيرتيس أَنَّ الانتفاضةَ العربيّةَ الّتي اندلعتْ سنةَ ٢٠١١م قَدْ قَامَ بِهَا في المقامِ الأوّلِ جيلٌ تتراوحُ أعمارُهُ بين ٢٠-٣٥ سنةً. وَباستثناءِ جَنوبِ الصّحراءِ الإفريقيّةِ، لا يوجدُ مِنطقةٌ في العَالَمِ ترتفعُ في شُعُوبِهَا نِسْبَةُ الشّبَابِ، مِثْلُ العَالَمِ العَرَبيّ؛ فَفِي مُعظمِ الدّولِ العَرَبيّةِ تتراوحُ نسبةُ السّكانِ الّذينَ

تَقلُّ أعمارُهُمْ عَنْ ٣٥ سنةً بَيْنَ ٦٥٪ ٧٥٪. بَلْ إنَّها تبلغُ في اليمن نحوَ ٨٠٪، وَفِي سُوريَا أكثَرَ مِنْ ٧٣٪، وَفِي السّعُوديّةِ ٧٠٪، وَفي مِصْرَ ٦٩٪. أمّا في تونسَ، فتبلغُ نسبةُ هؤلاءِ الّذينَ تقلُّ أعمارُهُم عَنْ ٣٥ سَنَةً نَحْوَ ٥٩٪. إنَّ الجيلَ المولودَ بينَ سنتي ١٩٧٥م-١٩٩٠م، بعمره المتراوح بَين ٢٠-٣٥ سنةً في عامِ ٢٠١١م، يُمثّلُ في كُلّ مَكانٍ مِنَ العَالَمِ العَرَبيّ أكثرَ من ٣٠٪ مِنْ مَجْمُوعِ السّكان. وَهَذِهِ المجموعةُ العمريّةُ المولودةُ خلالَ ١٥ عامًا - مَا بَيْنَ ١٩٧٥م-١٩٩٠م، هِيَ أكبرُ عَدَدًا مِنَ المجموعةِ العمريّةِ المولودةِ في الخمسةَ عشرَ عامًا السّابقةِ لَهَا، أيْ قَبْلَ سنةِ ١٩٧٥م، وَهِيَ أيضًا، باستثناءاتٍ قليلةٍ، أكبرُ عددًا مِنَ المجموعَةِ العمريّةِ المولودةِ بعدَهَا، أيْ بَعْدَ سنةِ ١٩٩٠م. ويعودُ هَذَا ببساطةٍ إلى أنّها وُلِدَتْ أثناءَ الطّفرةِ السّكانيّةِ، أو الانفجار السّكانيّ الّذي تمّ التّحكُم فيه قليلًا بعدَ ذلك. هَذِهِ المجموعةُ العمريّةُ مثّلَتِ العنصرَ الأساسيَّ للانتفاضاتِ العربيّةِ في تونسَ ومصرَ وَغيرهما مِنَ الدّول العربيّةِ، وَهِيَ تتميّزُ بأنّها أفضلُ تعليمًا مِنَ الجيلِ الّذي سبقَها، وأحسنُ تنظيمًا واتّصالًا مِنْ خِلَالِ استخدامِ الفيسبوكِ. وَكَانَ كُلُّ هَذَا نتيجةً طبيعيّةً للتّوسّعِ الّذي شهدتْه المنطقةُ العربيّةُ في العقودِ السّابقةِ في المنظومةِ التّعليميّةِ. فمستوى التّعليمِ في بلدانِ العالمِ العربيّ منخفضٌ لا مَحالةَ، وَهُوَ مَا يمكنُ قراءتُهُ في تقارير التّنميةِ البشريّةِ العربيّةِ. هَذَا مِنْ ناحيةِ النّوعِ، أمّا مِنْ ناحيةِ الكَمِّ، فَقَدْ شَهدتِ المنطقةُ العربيّةُ زيادةً هائلةً في أعدادِ المدارسِ وَالجامعاتِ خِلالَ الحقبةِ الماضيةِ. أيْ أنَّ التّعليمَ انتشرَ في العالمِ العربيّ، برغم مستواهِ المنخفضِ. لكنّ المشكلةَ الحقيقيّةَ بدأتْ عِنْدَ تزايدِ أعدادِ خريجي هَذِهِ

المدارسِ والجامعاتِالّذينَ لا يجدونَ عَمَلًا بَعْدَ تخرّجهم. فَفِي الوقتِالّذي تزايدتْ فيه المدارسُ والجامعاتُ، تراجعتْ جميعُ الحكوماتِ العربيّةِ تقريبًا، مُنْذُ منتصفِ تسعينيّات القرن العشرينَ، عَنْ تعهّدها بتوظيفِ خَريجي الجامعاتِ في القطاع العامّ. وَكانَ هَذَا تطوّرًا طبيعيًّا، بَعْدَمَا تكدّستْ جميعُ القطاعاتِ الحكوميّةِ بالموظّفينَ العاطلينَ. وَهَكَذَا انضمّ عَشراتُ الآلافِ من خِريجي الجامعاتِ إلى جُيوشِ البطالةِ في العَالمِ العربيّ. ونتجَ عَنْ ذَلِكَ ارتفاعُ نسبةِ البطالةِ بينَ الشّبابِ في العالمِ العربيّ مقارنةً بدول العالمِ الأخرى. والملفتُ هُنَا أنّ البطالةَ غَيْرُ موزّعةٍ عَلَى الفئاتِ العمريّة المختلفةتوزيعًا عَادِلًا، بَلْ تتركّزُ في هَذَا الجيلبالذّاتِ. فَفِي مصرَ كَانَ ٩٠٪ مَنْ مَجموعِالعَاطلينَ عَن العمل ممَّنْ هُمْ تحتَسِنّ الثّلاثينَ، وفي الجزائر كَانَ ٨٦٪ مِنَ العاطلينَ تحتَسِنّ الخامسةِ والثّلاثينَ، وتزيدُ معدّلاتُ البطالةِبَيْنَ خريجي الجامعاتِ بِصُورةٍ خَاصَّةٍ.

والملفتُ للنّظر هُنَا هُوَ وُجودُ قاسمٍ مشتركٍ يجمعُ بينَ ذلكَ الجيل العربيّالذّي يتراوحُ عمرُ أفرادِه بين ٢٠-٣٥، من المحيطِ إلىالخليج ، أنّه جيلٌ يشعرُ بأنّه حُرِمَ من فرصِهِ المشروعةِ للمساهمةِ في الحياةِ الاقتصاديّةِ، والاجتماعيّةِ، والسّياسيّةِ. ويشعرُ كثيرٌ من أفرادِ هذا الجيل أنّهم قد حَصَلُوا شكليًّا عَلَى تعليمٍ محترمٍ، لكنّهم لميحصلُوا على العمل المناسبِ لمؤهلاتهم، أو هُمْ حصلوا على عملٍ غير مناسبٍ، وأنّهم، بعكسِ الجيل الأكبر منهم، لا يجدونَ فرصةً شرعيّةً للعمل في أوروبّا أو منطقةِ الخليج. ونظرًا إلى أنّهمبِلا دخلٍ، أو بدخلٍ بسيطٍ، فهم لا يستطيعونَ استئجارَ شَقَّةٍ. وبدونشَقَّةٍ

لا يمكنُهم تأسيسُ أسرةٍ. وبدون زواج يُحرمونَ من حقّهم في الاستمتاع بِدفءِ الحياةِ الزّوجيّةِ، والجماع. وهم يشعرونَ بتقلّصٍ ما يحصلونَ عليه من دخلٍ، وأنّ السّياسةَ هي عملُ النّخبةِالّتي لا ينتمونَ إليها. ونتجَ عَن مهاراتهم الفنّيّةِ في التّعاملِ مع الإنترنتِ أنّهم استطاعوا الاطّلاعَ على تقارير «ويكيليكس Wikileaks»الّتي يفضحُ فيها الدّيبلوماسيّونَ الأمريكيّونَ الفسادَ المستشري في الأنظمةِ العربيّةِ. وكثيرًا ما عايشوا التّعسّفَالّذي تتعاملَ به أجهزةُ الأمن والمباحثِ مَع الشّبابِ، والمواطنينَ، والعمّال والمعارضينَ. ولمسوا انتهاكَ الكرامةِ الإنسانيّةِ في تعاملِ الأجهزةِ الأمنيّةِ مَع أفرادِ الشّعبِ. وَعَنْ طريقِ اشتغالهم بالإنترنتِ والفيسبوكِ خلقوا لأنفسِهم وسائلَ جديدةً لمعرفَةِ ما يدورُ حولهم في شتّى دول العالمِ، وشعروا بذلكَ أنّهم يعيشونَ على هامشِ ما يحدثُ من تطوّراتٍ سياسيّةٍ دوليّةٍفَإِذَا كَانَ هؤلاءِ الشّبابُ العربُالّذين تتراوحُ أعمارُهم بينَ ٢٠-٣٥ عامًا قد جمعتهم المعاناةُ المتزامنةُ من المشاكل نفسها، وصهرتهم في جيلٍ واحدٍ، فإنّهم قَد صاروا منذُ ٢٠١١م، مَع بدايةِ انتفاضةِ تونسَ ومصرَ والدّول العربيّةِ الأخرى، جيلًا سياسيًّا، يعتبرُ نفسَه لاعبًا ومشاركًا في الأحداثِ، وَيُنْظَرُ إليه أيضًا هَكَذَا. وقد لمسَ فُوْلكَرُ بيرتيسُ ذهولَ الجيل العربيّ الأكبر عمرًاوإعجابِه بهذا الجيلِالثّوريّ، السّياسيّ، الشّابّ. ويريد فُوْلكَرُ بيرتيس أَنْ يستنتجَ مِنْ هَذَاأَنَّ الانتفاضاتِ العربيّةِالّتي اندلعتْ سنةَ ٢٠١١م هِيَ في الواقع ثِورةُ جيل سنةِ ٢٠١١م: إنّها ثوراتٌ سياسيّةٌ ، لكنّها تأخذُ أيضًا دائمًا شكلَ جيلٍ يفرضُ نفسَهُ على السّاحةِ، وكثيرًا ما تتضمّنُ صراعَ الأجيال.

يمكنُ ملاحظةُ هذا من خلالِ التّطابقِ شبهِ الكاملِ للمطالبِ الّتي رفعتها الحركاتُ الاحتجاجيّةُ في تونسَ ومصرَ، وبعدَ ذلكَ في المغربِ، والبحرين، واليمن، وسوريا. لكنّها تختلفُ بوضوحٍ عَن المطالبِ والشّعاراتِ الّتي كنّا نسمعُهَا هناكَ أيضًا في المظاهراتِ الغاضبةِ في ثمانينيّاتِ القرن العشرينَ وتسعينيّاتِهِ. وباستثناءاتٍ قليلةٍ، لم نسمعْ شعارَ: «الإسلامُ هُوَ الحلُّ»، أَو: «الموتُ للإمبرياليّةِ والصّهيونيّةِ». إِنَّ انتفاضاتِ سنةِ ٢٠١١م كانتْ غيرَ إيديولوچيّةٍ، وهو ما يميّزها أيضًا عن الانتفاضاتِ السّابقةِ في مختلفِ الدّول العربيّةِ. وَقَدْ وصفها الفرنسيّ أوليفر روي بأنّهاتمثّلُ عصرَ «ما بعدَ المرحلةِ الإسلاميّةِ». فهيَ فيمَا يبدو انتفاضاتٌ لم تكنْ بحاجةٍ إلى إيديولوچياتٍ كانتْ موجودةً ومنتشرةً بالفِعْل في العالمِ العربيّ، مثل إيديولوجيّةِ الإسلاميّينَ، وإيديولوچيّةِ القوميّةِ العربيّةِ.

وَلَعَلَّ الشّعارَ الأكثرَ انتشارًا كَانَ: «الشّعب يُريدُ إسقاطَ النّظامِ». وكانتِ «الكرامةُ» مِنْ أَهَمّ المطالبِ، وكذلكَ «العدالةُ»، و«الحرّيّةُ». فالكرامةُ كانتْ تعني المطالبةَ بمعاملةٍ لائقةٍ. والحرّيّةُ كانتْ تعني إنهاءَ الحكمِ الاستبداديّ. وكانَ المقصودُ بالعدلِ هُوَ حقّ المشاركةِ في السّياسةِ والرّفاهيةِ. كما شاعتِ المطالبةُ بإنهاءِ الفسادِ ومعاقبةِ الفسدةِ. وظهرَ شكلٌ جديدٌ مِنَ الكبرياءِ، والافتخار بالوطن، وكلّ ما يرمزُ له. وباستثناءِ ليبيا الّتي استعانَ فيها الثّوّارُ بالعَلَمِ القديمِ للمملكةِ اللّيبيّةِ الّتي أسقطها القذّافي، أصبحَ العلَمُ الوطنيّ هو علم الانتفاضةِ، ورمزًا لها: لقد تبنّى الثّوّارُ العَلَم الوطنيّ، واستخدموه لإعلان أنّ الأنظمةَ العربيّةَ لاتُمثّلُ الشّعوبَ

العربيّةَ ، مظهرينَ افتخارَهم بالانتماءِ إلى شعبٍ يكشّرُ عن أنيابِهِ للمستبدينَ. وهكذا أسقطَ الثّوّارُ حاجزَ الخوفِ في صراعِهم من أجلِ استردادِ كرامتِهم وحقوقِهم.

إنَّ جيلَ ٢٠١١م الّذي قامَ بانتفاضةِ سنةِ ٢٠١١م هُوَ جيلٌ شَكّاكٌ، إنْ صَحَّ التّعبيرُ. جيلٌ ينظرُ بحذرٍ وارتيابٍ إلى جميعِ الإيديولوچيّاتِ، بِمَا في ذَلِكَ إيديولوچيّةُ الإسلاميّينَ. وبرغمِ أنّ الكثيرَ منهم متديّنونَ، إلّا أنّهم يَعْتَبِرُونَ الإسلامَ دينًا، وَلَيْسَ إيديولوچيا. إنَّ هَذَا الجيلَ لَمْ يَعُدْ يُصَدِّقُ مَا تروّجُه وسائلُ إعلامِ الأنظمةِ الاستبداديّةِ. وَكيفَ لهم أن يُصدّقوها؟! أَلَمْ يَرَ هَؤلاءِ الشّبابُ كيفَ يتعاملُ جيلُ آبائِهم ومعلّميهم مَعَ القيمِ، والمبادئ، والمذاهبِ، الّتي تزعُم الحكوماتُ العربيّةُ أنّها تمثّلها، أو تطالبُ بها في المناسباتِ الرّسميّةِ: عِنْدَما يعرفُ الجميعُ أنّ تزويرَ الانتخاباتِ يتّم علانيّةً في سوريا ومصرَ وتونسَ؛ وعندما تدّعي أحزابُ الدّولةِ والحكومةُ أنّها «ديمقراطيّةٌ»، مَعَ أنّها في واقعِ الأمرِ لا تدافعُ إلّا عَنْ سلطةِ عصابةٍ صغيرةٍ؛ وَعندما تمرّ حملاتُ مكافحةِ الفسادِ بدون أيّ تأثيرٍ؛ وَعِنْدَما يتحدّثُ الجميعُ عَنِ التّضامنِ العربيّ، وَدَعْمِ القضيّةِ الفلسطينيّةِ، في الوقتِ الّذي تقومُ فِيهِ أكبرُ دولةٍ عربيّةٍ بإغلاقِ حدودِها مَعَ قطاعِ غزة، مُدعّمةً بذلكَ الحصارَ الصّهيونيّ عَلَى سُكّانِ غزة؛ وَعِنْدَما تسعى الأنظمةُ العربيّةُ إلى توظيفِ الانتصاراتِ القديمةِ من أجلِ إقناعِ شعوبِها بشرعيّتِها، مَعَ أنّ هَذِهِ الانتصاراتِ كَانَتْ قَدْ فَقَدَتْ أهمّيّتَها بالنّسبةِ لواقعِ حياةِ النّاسِ. فَعِنْدَما ذكرَ حسني مبارك فِي خطابِهِ الأخير في العاشر من فبرايرَ سنةَ ٢٠١١م أنّه انتصرَ لمصرَ سنةَ ١٩٧٣م، أَظْهَرَ عُمْقَ الفَجْوَةِ الّتي تفصلُ بينَ

نظامِهِ وَهَذَا الجيلِ الّذي يعتبرُ نصرَ أكتوبرَ مِنْ أحداثِ التّاريخ السّحيقِ الّتي لا يمكنُ أن تمنحَ لأيّ نظامٍ أوْ شخصٍ أدنى شرعيّةٍ.

٨- الشَّعْبُ يُرِيدُ إِسْقَاطَ النّظَامِ - دِينَامِيكِيَّاتُ التَّمَرُّدِ العَرَبِيّ

يُشيرُ الكاتبُ إلى اختلافِ طريقةِ اندلاعِ الانتفاضاتِ والثّوراتِ العربيّةِ، وتباينِ كيفيّةِ تطوّرهَا، بدايةً مِنْ تونسَ بطبيعةِ الحالِ. وبرغمِ هذا الاختلافِ حدثتِ اتّصالاتٌ قويّةٌ بَيْنَ هَذه الانتفاضاتِ مُنْذُ البدايةِ، ليسَ نظرًا إلى وحدةِ اللّغةِ فحسبُ، لكنْ أيضًا لأنّ وسائلَ الإعلامِ كَانَتْ تنقلُ أحداثَ هَذه الانتفاضاتِ إلى معظمِ الدّولِ العربيّةِ مباشرةً. وهكذا كانتِ الانتفاضةُ المندلعةُ في بلدٍ عربيّ تلهمُ الانتفاضاتِ في الدّولِ الأخري،وتؤثّرُ فيها.أَمَّا الأنظمةُالعربيّةُ ،فَقَدْتَابَعَتْ هذه الأحداثَ بذهولٍ، واستياءٍ وقلقٍ واشمئزازٍ. فالرّؤساءُ والملوكُ العربُ، وأجهزتهمُالأمنيّةُ ، لم يُفَاجئوا باندلاعِ الانتفاضةِ في تونسَ فحسبُ، بل صُدِمُوا أيضًا من سرعةِ سقوطِ بن عليّ.
توهّمَ الحكّامُ العربُ في البدايةِ أنّ مَا حَدَثَ في تونسَ هُوَ مُجَرَّدُ حَادِثٍ فَرْدِيٍّ مُؤْسِفٍ، أوْ كَمَا قَالَ القذّافيُّ: إِنَّ التّونسيّينَ أَظْهُروا إنكارًا للجميلِ تجاهَ رئيسِهم بن عَليّ.
في البدايةِ كَانَ الإنكارُ. ولنتذكّرْ أبا الغيطِ عندما قالَ بصلفٍ وغطرسةٍ إنّ ما حدثَ في تونسَ مستحيلٌ أن يحدثَ في مصرَ. ويشيرُ فُوْلكَرُ پيرتيسُ إلى موقفِ بشّار الأسدِ في بدايةِ اندلاعِ الثّوراتِ العربيّةِ، حيثُ أعلنَ في حوارٍ مَعَ صحيفةِ «الوول ستريت جورنال» في نهايةِ ينايرَ ٢٠١١م، بشيءٍ مِنَ الوقاحةِ، عَنْ «بدايةِ عَصْرٍ جديدٍ في الدّولِ العربيّةِ الأخرى»

(دُونَ سُوريَا)! ثُمّ جَاءَ بَعْدَ الإنكار اعترافٌ جُزئيٌّ بِأَنَّ هُنَاكَ مشاكلَ داخليّةً ، ليستْ سياسيّة، بل اقتصاديّةً واجتماعيّةً. توهّم الحكّامُ العربُ أَنَّ الاضطراباتِ والمظاهراتِ والانتفاضاتِ الّتي اندلعتْ في دولِهم يمكنُ السّيطرةُ عليها من خلال التّصريحاتِ والهباتِ الاجتماعيّةِ: وهكذَا وبسرعةٍ صاروخيّةٍ أعلنتْ كُلٌّ مِنْ مصرَ، والجزائر، وليبيا، والمغربِ، وتونسَ، وسوريا، والأردن، والسّعوديّةِ، والكويتِ، إعادةَ دعمِ الموادّ الغذائيّةِ أو البنزين، بعدما تمّ تخفيضُه في السّنواتِ السّابقةِ. وأعلنتْ حكوماتُ الجزائر وليبيا واليمن والأردن وسوريا والكويتِ والسّعوديّةِ وَعُمَانَ عن زيادةٍ كبيرةٍ نسبيًّا في مُرتّباتِ موظّفي الحكومةِ. ووعدتْ بعضُ الحكوماتِ العربيّة بتقديمِ مُساعداتٍ مباشرةٍ إلى المحتاجينَ. وأعلنتْ عدّة حكوماتٍ عربيّةٍ عَن رغبتِها في خَلقِ عشراتِ الآلافِ من فرصِ العملِ، وأعلنَ ملكُ السّعوديّةِ عنْ بناءِ نصفِ مليون وحدةٍ سكنيّةٍ لمحدودي الدّخل، وتوظيفِ ستّينَ ألفِ خريجٍ جامعيّ في الأجهزةِ الأمنيّةِ الحكوميّةِ.

أمّا الخطوةُ الثّالثةُ ، فلمْ تبدأْ ، إلّا عندما أصبحَ مِنَ الصّعبِ إنكارُ أنّ هذه الاحتجاجاتِ المندلعةَ كَانَتْ ذاتَ طبيعةٍ سياسيّةٍ. عِندئذٍ راهنتْ معظمُ الأنظمةِ العربيّةِ على إجراءاتٍ تبدأُ بسحبِ الشّرعيّةِ مِنَ الحركةِ الاحتجاجيّةِ، مُرورًا بتلطيخِ سمعةِ المشاركينَ فيها، وترويعِهم، وتنتهي باغتيالِهم! أَعْلَنَ كُلٌّ مِنْ بن علي رئيسِ تونسَ، ومبارك رئيسِ مصرَ، وبشّار رئيسِ سوريا، والقذّافي رئيسِ ليبيا، وصالح رئيسِ اليمن، جميعًا، أنّ الاحتجاجاتِ هِيَ جزءٌ مِنْ مُؤامرةٍ ضدَّ بلدِهم، أو أنّها من عملِ المتطرّفينَ الإسلاميّينَ والإرهابيّينَ، أوْ «عُملاءَ

أجانبَ». وبعدَ ذلكَ بقليلٍ بدأتِ الأنظمةُ العربيّةُ في استخدامِ العنفِ. وتعاملتْ قوّاتُ الشّرطةِ أو الجيشِ بمنتهى الوحشيّةِ مَعَ المتظاهرينَ. وأطلقتِ السّلطاتُ في مصرَ جماعاتِ «البلطجيّةِ»، وفي سوريا جماعاتِ «الشّبّيحةِ»، لترويعِ المواطنينَ، وخلقِ حالةِ «الانفلاتِ الأمنيّ». كَما انتشرتِ القنّاصةُ الّتي تقومُ بعمليّاتِ تصفيةٍ ممنهجةٍ للمعارضينَ. وعندَما تشعرُ الأنظمةُ بعدمِ فعّاليةِ هذه الوحشيّةِ في التّعاملِ مَعَ المتظاهرينَ، ينتقلُ الحكّامُ العربُ إلى المرحلةِ الرّابعةِ في سعيهم للسّيطرةِ على الأمور، فيقدّمونَ الوعودَ بالإصلاحِ، ويعرضونَ التّفاوضَ معممثّلي المعارضةِ، ويقترحونَ عملَ حوارٍ وطنيّ. وهكذا أعلنَ رؤساءُ تونسَ ومصرَ واليمن عن تخلّيهم عن التّرشّح لِفترةٍ رئاسيّةٍ جديدةٍ. ولجأَ عليّ عبد الله صالح إلى المناوراتِ السّياسيّةِ، فأعلنَ عن نيّتِهالتّخلّى عن منصبِهِ. وحاولَ مبارك امتصاصَ غضبِ الجماهير بإعلانِ تشكيلِ حكومةٍ جديدةٍ. وأعلنتِ الجزائرُ وسوريا رفعَ حالةِ الطّوارئ، على الورقِ عَلى الأقلّ. وَفِي المغربِ شَكّلَ الملكُ بَعْدَ المظاهراتِ الأولى لجنةً لعمل دستورٍ جديدٍ، في حين شكّلَ بشّار الأسد لجنةً للحوار الوطنيّ، بعدَ عدّةِ أشهرٍ من المظاهراتِ. وأعلنَ ملكُ البحرين بعدَ قمع المظاهراتِ إلى حدٍّ بعيدٍ بدَء حوارٍ وطنيٍّ وفي السّعوديّةِ أعلنتِ السّلطاتُ عن نيّتِها على عقدِ انتخاباتٍ بلديّةٍ. وقد جاءتْ هذه الإجراءاتُ في غالبيّةِ الحالاتِ متأخّرةً جدًّا، وغيرَ كافيةٍ. أمّا الخطوةُ الخامسةُ، فقدِ اختلفتْ من حالةٍ إلى أخرى،وَتَمثّلَتْ فِي: السّعي إلى الحوار، وَالتّفاوضِ عَلَى إصلاحاتٍ، والانتظار الحذر، وَالقمع الدَّمويّ، وَالتّهديدِ بضربِ الاستقرار في دول

الجوار والمنطقةِ برمّتها،أَوْإِشْعَالِ حَربٍ أهليّةٍ، أو تدويل الحربِ الأهليّةِ في دولٍ أخرى.

٩ -تُونِسُ: مُنْطَلَقُ الثَّــوْرَاتِالعَـرَبِـيَّـةِ

تُعتبرُ تونسُ بسكانِهاالّذينَ لا يتجاوزونَ ١٠،٥ مليون نسمة مِنَ الدّولِ العربيّةِ الصّغيرةِ نسبيًّا. اتّخذتْ جامعةُ الدّولِ العربيّةِ مَا بينَ ١٩٧٩م-١٩٩٠م مِن تونسَ مقرًّا لَهَا، بَعْدَ تجميدِ عضويّةِ مِصْرَ بسببِ السّلامِ المخزي مَعَ إسرائيلَ. واتّخذتْ مُنظّمةُ التّحرير الفلسطينيّةُ من تونسَ مَقرًّا لَهَا مِنْ ١٩٨٢م-١٩٩٣م، بَعْدَ طَردِهَا من لبنانَ، وحتّى العودةِ إلى غزّةَ وأريحا Jericho في إطار معاهدةِ-أوسلو. بيدَ أنّ تونسَ لَمْتَقُمْ أبدًابِأَيِّدَوْرٍ مركزيٍّأَوْ قياديّ في العالمِ العربيّ، ولا كانتْ هِيَ الدّولةالّتي ينتظرُ منها شُعُوبُ الدّولِ العربيّةِ الأخرى أن تكونَ مصدرَ إلهامٍ لهم.

تمكّنَ الرّئيسُ زين الدّين بن عليّ -الّذي استولى عَلى السّلطةِ سنةَ ١٩٨٧م بانقلابٍ سلميّ- مِنَ النّأي بتونسَ بعيدًا عن الصّراعاتِ الإقليميّةِ والدّوليّةِ،وَأَقَامَ علاقاتٍ وثيقةً مَعَ معظمِ الدّولِ العربيّةِ والأوروبيّةِ والولاياتِالمتّحدةِ الأمريكيّةِ، وأعطى جيرانَهُ الأوروبيّينَ بصورةٍ خاصّةٍ الانطباعَأَنَّهُ ينتهجُ سياسةًتؤدّى إلى اسْتِقْرَار المنطقةِ وتضمنُه أيضًا. لكنّ هذه السّياسةَ كَانَتْ تقومُ على الإيحاءِ Suggestion أو الإيحاءِالذّاتيّ Autosuggestion أكثر منها على الحقائق. ويشيرُ الكاتبُ إلى ما ذكره فيكتابِهِ: «الحدائقُ الخفيَّةُ. العالَمُ العربيّ الجديدُ» "Geheime Gärten. Die neue arabische Welt" في مَطْلَعِ القرن الحادي والعشرينَ من

أنّهُ توقّعَ فشلَ هذا النّظامِ الاستبداديّ في تونسَ بسببِ نجاحِ سياساتِهِ الاقتصاديّةِ والاجتماعيّةِ والتّعليميّةِ. فهذا مجتمعٌ معقّدٌ ومتطوّرٌ لم يستطعْ أن يواصلَ نموَّه وتطوّرَهُ بسببِ الأوضاعِ السّياسيّةِ. يمكنُ أيضًا أن نقولَ إنّ تونسَ قد أصبحتِ الدّولةَ العربيّةَ الّتي صارتْ فيها التّطوّراتُ السّياسيّةُ أقلَّ انسجامًا مَعَ التّطوّراتِ الاجتماعيّةِ-الاقتصاديّةِ. اقتصاديًّا وصلتْ تونسُ إلى مستوى بعضِ دولِ جنوبِ أوروبّا في ثمانينيّاتِ القرنِ العشرينَ. لكنْ سياسيًّا بقيتْ تونسُ على مستوى أسبانيا والبرتغال واليونان عندما كانتْ تحتَ الحكمِ الدّيكتاتوريّ. والحقيقةُ أنّ تونسَ كانَتْ ومازالتْ أحدثَ من دولٍ أخرى في المنطقةِ العربيّة مِنْ وجوهٍ كثيرةٍ. فالمرأةُ التّونسيّةُ تمتّعتْ بحقوقٍ تفوقُ ما حصلتْ عليه نظيرتُهَا في سائرِ الدّولِ العربيّةِ الأخرى تقريبًا. وتقلُّ نسبةُ الأميّةِ في تونسَ عن مصرَ والجزائر، وَهِيَ أقلّ بكثيرٍ من المغربِ. وفي سنةِ ٢٠١٠م كانَ ٣٤٪ مِنَ التّونسيّينَ يستخدمونَ الإنترنتَ. لكنْ في الوقتِ نفسِهِ سيطرتْ على تونس-بن عليّ أجواءٌ سياسيّةٌ قمعيّةٌ عقيمةٌ ، دونَ أن يكونَ للمعارضةِ أيُّ وجودٍ عَلى السّاحةِ. صحيحٌ أنّه كانَ هناكَ انتخاباتٌ، لكنْ أيّ انتخاباتٍ؟ انتخاباتٌ شكليّةٌ مزوّرةٌ تُعْرَفُ نتائجُهَا مسبقًا. أمّا «حزبُ النّهضةِ» الإسلاميّ المعتدلُ، فقدْ تمّ إقصاؤه مِنَ الحياةِ العامّةِ، ووضِعَتْ النّقاباتُ تحتَ السّيطرةِ، ومنظّماتُ المجتمعِ المدنيّ تحتَ المراقبةِ. وهكذا تحوّلتْ تونس-بن عليّ إلى إحدَى أكثرِ الدّولِ العربيّةِ قمعًا. صحيحٌ أنّ قمعَ بن عليّ لم يكنْ دمويًّا مثلَ قمعِ صدّام حسين، لكنّه كانَ قمعًا يعتمدُ على تحكّمِ الأجهزةِ الأمنيّةِ في كلّ شيءٍ. وكانتْ غالبيّةُ المعتقلينَ السّياسيّينَ من صفوفِ

الإسلاميّينَ. أَمَّا المعارضونَ اللّيبراليّونَ والعلمانيّونَ، فقد تمّ تكميمُ أفواهِهم في المقامِ الأوّل إِمَّا بالتّرويعِ أَو النّفي، وأحيانًا بالسّجن.

وَبفضلِ عمالتها المؤهلةِ، وطبقتِها الوسطى المنفتحةِ ثقافيًّا عَلَى العَالَمِ، أصبحتْ تونسُ شريكًا اقتصاديًّا مُفَضَّلًا لأوروبّا. وَكانَ هناكَ مصانعُ تونسيّةٌ كثيرةٌ تُنتجُ لصالحِ الأسواق الأوروبيّةِ. ويبدو أنّ الأوروبيّينَ، حكوماتٍ وسُيّاحًا، لم يتوقّفوا كثيرًا أَمَام الأساليبِ القمعيّةِ لنظامِ بن علّي، وكونِهِ يعتبرُ تونسَ تكيةً له ولحاشيتِهِ. وَمعَ ذلكَ فَإِنَّ الاقتصادَ التّونسيَّ لم تتوفّرْ له شروطُ النّجاح. وَكانَ للفسادِ المستشري في المرحلةِ الأخيرةِ من حكمِ بن علّي بالذّاتِ دورٌ حاسمٌ في إعاقةِ النّموّ الاقتصاديّ. وبرغمِ الاستثماراتِ الهائلةِ في قطاعِ التّعليمِ، وجدَ عددٌ كبيرٌ من خريجي المدارسِ والجامعاتِ أنفسَهم بلا عملٍ. وهكذا بلغتْ نسبةُ البطالةِ بينَ الشّبابِ أكثرَ من ٤٠٪. وقد تسبّبَ كُلُّ هذا في خلقِ حالةٍ من الاحتقان، وتزايدِ مشاعر الغضبِ والاستياءِ، بحيثُ أنّ الأمرَ لم يكنْ بحاجةٍ إلا إلى شرارةٍ لإشعال نار الانتفاضةِ، وَهوَ مَا حدثَ بمجرّدِ انتشار خبر قيامِ الشّابّ محمّد بوعزيزي بإشعال النّار في نفسِه احتجاجًا على المعاملةِ غير الإنسانيّةِ الّتي عوملَ بها من قِبَل السّلطاتِ التّونسيّةِ. وَكانَ غضبُ الجماهير التّونسيّةِ المتظاهرةِ يوحي بما كانَ الشّبابُ يكظمُه مِنْ غيظٍ وَإحباطٍ وَيأسٍ وَذلٍّ مُنْذُ وَقتٍ طويـــلٍ.

وَفِي مَطلعِ يناير سنة ٢٠١١م توفّي محمّد بوعزيزي متأثّرًا بجروحِه. والملفتُ للنّظر أنّ المظاهراتِ الّتي اندلعتْ في أنحاءِ تونسَ عقبَ حادثةِ بوعزيزي، كانتْ تُطالبُ في بدايتها

بمعاملةٍ إنسانيّةٍ للمواطن من قبل السّلطاتِ القمعيّةِ، فِي المقامِ الأوَّل. وَقَدْ لجأتِ السّلطاتُ فِي البِدَايَةِ إلى الأساليبِ القمعيّةِ لمواجهةِ المظاهَراتِ: أُطْلِقَ الرّصاصُ، سَقَطَ الشّهداءُ، تصاعدتِ الاحتجاجاتُ، زادتِ المطالبُ، ثُمَّ رَاحَتِ الجماهيرُ تهتفُ: «الشّعبُ يُريدُ إسقاطَ النّظامِ».

في منتصفِ يناير ٢٠١١م اتّضحَ أنّ النّظامَ لم يفقدِ الشّبابَ فحسبُ، بل أيضًا الطّبقةَ المتوسّطةَ المتحضّرةَ المثقّفةَ، خاصّةً بسببِ كَمِّ العنفِ المتصاعدِ المستخدمِ ضدّ المتظاهرينَ. ثُمَّ إنَّ بِن عليّ قد أدركَ بَعْدَ كُلِّ هذه التّطوّراتِ أَنَّ جميعَ الإجراءاتِ القمعيّةِ لم تعدْ تكفي للسّيطرةِ على الأوضاعِ. فانتقلَ إلى مرحلةٍ أخرى، إلى وسيلةٍ أخرى، وسيلةٍ غير واقعيّةٍ، بتقديمِ وعودٍ بتشغيلِ خمسينَ ألفِ خريجِ جامعةٍ خلالَ أشهرٍ قليلةٍ. وبعدَ ذلكَ بأربعةِ أيّامٍ أعلنَ في خطابٍ له أنّه لن يُرشّحَ نفسَهُ لولايةٍ جديدةٍ سنةَ ٢٠١٤م، وأنّهُ سوفَ يُشكّلُ لجنةً للحوار الوطنيّ، ويُطلقُ حرّيّةَ الصّحافةِ، ويسمحُ بانتخاباتٍ حرّةٍ نزيهةٍ، وجعلَ يُكرّرُ: «أنا فهمتُكم، أنا فهمتُكم»، لكنّهُ في الواقعِ لم يكنْ قَدْ فهمَ شيئًا. فعروضُه هذه قد جاءتْ كلّها متأخّرةً. وأدركَ خصومُه أنّه أظهرَ ضعفًا، ورفضَ قادةُ الجيشِ إطلاقَ النّارِ على المتظاهرينَ، فسارعَ بن عليّ بإعفاءِ قائدِ الجيشِ من منصبِهِ. والواقعُ أنّنا لا نعرفُ بالضّبطِ ما الّذي حدثَ في هذهِ الفترةِ. ومن المحتملِ أنّ قيادةَ الجيشِ قد أبلغتْ بن عليّ بأنّ عصرَه قَدولّى. لكنَّ بن عَلّي حَكَى بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ منفاه أنّهم قالوا له إنّ عليه مغادرةَ تونسَ مؤقّتًا فقطْ لأسبابٍ أمنيّةٍ. وَالحقيقةُ هِيَ أنّ بن عليّ كَانَ قد صعدَ طائرةً في اليومِ نفسِهِ الّذي ألقَى فِيهِ آخِرَ خِطَابٍ لَهُ، أقلته إلى منفاهِ

في السّعوديّةِ. وَهَكَذَا انهى التّونسيّونَ ٢٣ عامًا من حكمِ الاستبدادِ، بعدَ أقلّ مِنْ شهرٍ من اندلاعِ المظاهراتِ. وفي ٢٠ يونيو سنةَ ٢٠١١م صدرَ حكمٍ على بن عليّ بالسّجن ٣٥ عامًا بتهمةِ السّرقةِ.

١٠ - مِصْرُ: إسْقاطُ الْفِرْعَوْنِ وَطريقُ الدِّيمُقْراطِيَّةِ الْوَعِرُ

يُشير فُولْكَرُ پيرتيس إلى الأهمّيّةِ الّتي اكتسبَها ميدانُ التّحرير من خلالِ ثورةِ مصرَ المجيدةِ الّتي صارَ المصريّونَ يفخرونَ بها. ويذكرُ أنّ المقرّ الرّئيسيّ للحزبِ الوطنيّ الدّيمقراطيّ يقعُ بالقربِ من ميدانِ التّحرير، وَهُو مَبنًى مكوّنٌ من خمسةَ عشرَ طابقًا احترقَ أثناءَ الثّورةِ، لكنْ نجتْ يافطةٌ خارجيّةٌ مِنَ الحريقِ، مرسومٌ عليها خمسةُ أطفالٍ، تبدو عليهم السّعادةُ، ومكتوبٌ تحتها: «من أجلِ مستقبلِ أطفالِكَ». وهذا بالذّاتِ، أيِ ائتمان حسني مبارك وحزبه على مستقبلِ أطفالهم، هُو مَا لم يعدِ المصريّونَ مستعدّينَ له. ويرى الكاتبُ أنّ مبارك كان بوسعِه أن يضمنَ لنفسِه مكانًا محترمًا في التّاريخِ، لو أنّه كَانَ قَدْ أَعْلَنَ، قَبْلَ اندلاعِ الثّورةِ في مصرَ، عن عدمِ نيّته في التّرشّح لِفترةٍ جديدةٍ، وأَنّهُ لا يُريدُ تَوْريثَ ابنِه جمال السّلطةَ في البلادِ. ويعتقد فُولْكَرُ پيرتيس أنّ مبارك لم يكنْ كلّهُ سَيِّئَاتٌ أو عيوبٌ، بل كانتْ له أيضًا حسناتٌ ومناقبُ. ويرى فُولْكَرُ پيرتيس أنّ مبارك قد نجحَ في أوّلِ عقدينِ من العقودِ الثّلاثةِ الّتي قضاها حاكمًا لمصرَ: حافظَ على السّلامِ مع إسرائيلَ، أخرجَ مصرَ من عزلتِها العربيّةِ، وجعلها شريكًا مفضّلًا للولاياتِ المتّحدةِ والدّول الأوروبيّةِ. وتعرّضتْ مصرُ لسلسلةٍ مِنَ الأزماتِ السّياسيّةِ تحتَ حكمِ مبارك، خاصّةً موجةَ

الإرهابِ الشّهيرةَ. في تسعينيّاتِ القرن العشرينَ تطوّرَ الاقتصادُ المصريّ، وظهرتْ طبقةٌ وسطى جديدةٌ لم تكنْ راضيةً عمّا يحدثُ في مصرَ على الصّعيدين السّياسيّ والاجتماعيّ. وفي العقدِ الأخير من حكمِ مبارك ازدادَ الفقراءُ فقرًا،وقلّصتِ الدّولةُ من دعمِها للطّبقاتِ المطحونةِ،وأُهمِّلَ قطاعُ التّعليمِ. وبالرّغمِ من زيادةِ معدّلاتِ النّموّ الاقتصاديّ، لم تشعرْ قطاعاتٌ كبيرةٌ من المصريّينَ إلّا بزيادةِ الفقر والإملاق. وبلغتْ معدّلاتُ البطالةِ بينَ خريجي المدارسِ والجامعاتِ ذروَتَها. سياسيًّا كانَ النّظامُ يزدادُ جمودًا. وكانَ مبارك يزدادُ ابتعادًا عَن الإحساسِ بمشاعرِ شعبِهِ، وفضّلَ الإقامةَ في شرمِ الشّيخِ، بعيدًا عَن القاهرةِ، معظمَ أيّامِ السّنةِ. ويبدو أنّهُ لَمْ يشعرْ بشيءٍ ممّا انتابَ المصريّينَ من استياءٍ وغضبٍ وتذمّرٍ من السّياسةِ الّتي ينتهجُها نظامُهُ القمعيّ، ومن حرصِه على التّوريثِ أكثرَ من اهتمامِه بمشاكلِ شعبِهِ، ومن الفسادِ المستشري في أجهزةِ الدّولةِ، وبينَ حاشيتِهِ. وبرغمِ استبدادِ نظامِ مبارك، إلّا أنَّ استبدادَه كانَ أقلّ صرامةً من استبدادِ نظامِ بن عليّ في تونسَ. استبدادُ مبارك سمحَ بقدرٍ مِنَ الحرّيّةِ للمثقّفينَ المصريّينَ. وَكانَ بوسعِ منظّماتِ حقوق الإنسان مهاجمةُ انتهاكاتِ أجهزةِ الأمن لحقوق الإنسان المصريّ كَما أنّ وسائلَ الإعلامِ الخاصّةَ كانَتْ تُوَجّهُ سهامَ نقدِهَا إلَى الأوضَاعِ المتردّيةِ للبلادِ، بَلْوَا إلَى مبارك نَفْسِهِ. وَبِعَكسِ مَا كانَ يَحْدُثُ في تونسَ وسوريا، تَسامحَ نظامُ مبارك مَعَ بَعْضِ مُمَارَسَاتِ المعارضةِ. وَلَمْ تَكُن المظاهراتُ السّياسيّةُ غَيْرَ عَادِيَّةٍ، لكنَّ أجهزةَ الأمن كانَتْ تُسارعُ أحْيَانًا بقمعِهَا. وَتأسّستْ حركةُ «كفَايَة» سنةَ ٢٠٠٤م، لمقاومَةِ

مشروعِ التّوريثِ في المقَامِ الأوّلِ. وَقَامَ مُحمّدُ البرادعي بتجميعِ مليونِ توقيعٍ لِتعديلِ الدّستورِ مِنْ أجْلِ السّمَاحِ بانتخابَاتٍ نزيهَةٍ وَغيْرِ مُزوّرةٍ. شَكْلِيًا كَانَتْ مِصْرُ تَتمتّعُ أثنَاءَ حُكْمِ مباركٍ بِنِظَامِ تَعدُّدِ الأحزابِ. كَانَ هُنَاكَ عِدّةُ أحْزَابٍ صَغِيرَةٍ مُعَارِضَةٍ وَمَسْمُوحٍ بِهَا مِنْ قِبَلِ النّظامِ. وكَانَتْ جَمَاعَةُ «الإخوانِ المسلمينَ» محظورةً، لَكِنْ سُمِحَ لها بخوضِ الانتخاباتِ والمشاركةِ في الحياةِ السّياسيّةِ. حَصَدَ الإخوانُ في انتخاباتِ ٢٠٠٥م ٢٠٪ مِنْ مَقَاعِدِ البرلمانِ. نافسَ أيمنُ نورٍ في السّنةِ نفسِهَا الرّئيسَ مبارك في انتخاباتٍ رئاسيّةٍ مزوّرةٍ، قيلَ إنّ أيمنَ نورٍ حَصلَ فيها عَلَى ٦،٧٪ مِنَ الأَصْواتِ، لكنَّ النّظَامَ سارعَ إلى القبضِ عليه والزّجّ به في السّجن حيثُ أمضَى عدّةَ سنواتٍ في معتقلاتِ مبارك. وانتظرَ «حزبُ الوسطِ» الإسلاميُّ المعتدلُ ١٥ سنةً كاملةً بدونِ السّماحِ لَهُ بِمُمَارَسَةِ أيّ أنشطةٍ سِيَاسِيَّةٍ.

وَيُشِيرُ الكاتبُ إلَى مَا شَاعَ في عَصْرِ مبارك من سياسةٍ سَمحتْ للنّاسِ أنْ يقولوا كلّ شيءٍ، وللنّظامِ أن يفعلَ كُلَّ مَا يُريدُ. وَكَانَتِ انتهاكاتُ الأجهزةِ الأمنيّةِ ضدّ كرامةِ المواطنينَ العزلِ تتزايدُ،كلّما شعرَ النّظامُ بالخطرِ. وَتّم تزويرُ انتخاباتِ ٢٠١٠م بصورةٍ غير مسبوقةٍ، حيثُ حصلَ «الحزبُ الوطنيّ» على أكثر من ٩٧٪ من مقاعدِ البرلمان، وهو ما جعلَ ترشّحَ أيّ شخصٍ من خارجِ المؤسّسةِ الحاكمةِ، مثل محمّد البرادعي، من المستحيلاتِ، نظرًا لشرطِ حصولِ أيّ مرشحٍ محتملٍ على ٦٥ توقيعًا من أعضاءِ البرلمان حِينَئذٍ.

وقد أثارَ ما حدثَ من تزويرٍ فاحشٍ لانتخابات ٢٠١٠م استياءَ الشّعبِ. بلْ لم يخفِ بعضُ المقرّبينَ من السّلطةِ غضبَهم من

هذا التّزوير الصّريح. بيدَ أنّ تزويرَ الانتخاباتِ كانَ مجرّدَ عَاملٍ من عواملَ كثيرةٍ جعلتِ المصريّينَ ينتفضونَ في الخامسِ والعشرينَ من يناير ٢٠١١م. ففي عَام ٢٠١٠م حدثَ أكثرُ مِنْ ٧٠٠ اعتصامٍ وحركةٍ احتجاجيّةٍ. وَكانَتْ حَرَكةُ «السّادس من أبريل» قَدْ تأسّستْ سنةَ ٢٠٠٨م، بعدَ قيام أجهزة الأمن بقمع إضرابٍ لعمّال النّسيج بالمحلّةِ الكبرى. وفي سنة ٢٠١٠م سارعَ آلافٌ مِنَ المصريّينَ إلى استقبال مُحمّد البرادعي عندَ عودَتِهِ إلى مصرَ، برغمِ كثرةِ مَا أطلقتْهُ السّلطاتُ مِن تحذيراتٍ بعدمِ المشاركةِ في استقبال البرادعي في مَطار القاهرةِ. وتأسّستْ أيضًا سنة ٢٠١٠م مجموعةٌ هائلةٌ مِنَ المعارضينَ عَلَى الفيسبوكِ، بَلَغَ عَدَدُ أعضائِها أكثرَ مِنْ مليون عضوٍ، وَهِيَ مجموعةُ «كلّنا خالد سعيد»، وَهُوَ الشّهيدُ المصريُّ الّذي أشبعتْهُ الأجهزةُ الأمنيّةُ في الأسكندريّة ضربًا أدّى إلى وفاتِهِ. بيد أنّ شرارةَ الثّورةِ المصريّةِ جاءتْ من تونسَ الّتي لم يقتصرْ تأثيرُها على نشطاءِ الفيسبوكِ في مصرَ. وتساءلَ الجميعُ وقتئذٍ عَن التّأثيرِ الّذي يمكنُ أن تحدثَهُ ثورةُ تونسَ في العالمِ العربيّ. لكنّ الملفتَ للنّظر هُنَا هُوَ الصّلفُ الّذي تعاملتْ به السّلطاتُ في مصرَ مَع هَذِهِ الأحداثِ، فَقَدْ سَارَعَ وزيرُ الخارجيّةِ المصريّةِ في ذَلِكَ الوقتِ، المدعو أبو الغيط، إلى تأكيدِ استحالةِ تكرار مَا حَدَثَ في تونسَ مَرّةً أخرى في مصرَ. لَكِنْ سرعانَ مَا ثبتَ خَطأُ هَذَا الرّأْي. سَاهَمَتْ ثَوْرَةُ تونسَ فِي تشجيعِ المزيدِ مِنَ المصريّينَ عَلَى التّظَاهُرِ والثّورةِ. تَوافَقَ هذا مَعَ دَعوةٍ أطلقتْها مَجموعةٌ صغيرةٌ مِنَ النّشطاءِ السّياسيّينَ للتّظَاهُر يومَ ٢٥ يناير سنةَ ٢٠١١م، الموافقَ لـ «عيدِ الشّرطةِ». في البدايةِ انحصرتْ

مَطالبُ المتظاهرينَ فيالاحتجاجِ عَلَى وحشيّةِالأجهزةِ الأمنيّةِ تجاهَ المواطنينَ. وبعدَ ذلكَ رَفعوا سَقفَمطالبِهم، منادينَ بإقالةِ وزير الدّاخليّةِ، وإلغاءِ حَالةِ الطّوارئ، وتحديدِ فترةِ حُكمِ رَئيس الجمهوريّةِ، ورفع الحدِّ الأدنى للأجور.

اقتصرَ الأمرُ في البدايةِ إذاً عَلَى مطالبةِ المتظاهرينَ باسترجاع كرامتهم المهدرةِ، وَحقوقِهم المسلوبةِ.لَمْ يهتفْ أَحَدٌ في ذَلِكَ الوقتِ بسقوطِ مبارك أوْ دحر العَسكر. اختيارُ «يومِ الشّرطةِ» مَوْعِدًا للتّظاهر كانَموفّقًا، ولاقى قبولَ كثيرٍ مِنَ البسطاءِ واستحسانَهُم. فغالبيّةُ المصريّينَ كانُوا يَشعرونَ بالمهانةِوَالذّلّ مِنَ المعاملةِ غَير الإنسانيّةِالّتي يلقونها مِنَ الأجهزةِ الأمنيّةِ. كانَ النّشطاءُ يحلمونَ بمشاركةِ عشرينَ ألفًا، لكنَّ عددَ المتظاهرينَالّذينَ جاؤوا للمشاركةِ فَاقَ كُلَّ التّوقّعاتِ، حَيثُ حضرَ بالفعل نحوَ ٧٠ ألفَ متظاهرٍ.

استمرّتِ انتفاضةُ المصريّينَالّتي اندلعتْ في الخامسِ والعشرينَ من يناير ٢٠١١م ثمانيةَ عشرَ يومًافَقَطْ. استهانةُ النّظامِ بانتفاضةِ الشّعبِ اتّضحتْ في اليومِ الأوّل مباشرةً. فصحيحٌأَنَّ الأمنَ المركزيَّ تمكّنَ مِنْ إخلاءِ ميدان التّحرير فِي ذلكَ اليومِ، بيدَ أنّ هَذَا لم يكسرْ مِنْ عزيمةِالثّوّار. فبعدَ ذَلِكَ بثلاثةِ أيّامٍ فقطْ اندلعتْ مظاهراتُ «جُمعةِ الغضبِ» في التّامن والعشرينَ من يناير ٢٠١١م، ليسَ فيالقاهرةِ وحدَها، بَلْ في جميع أنحاءِ مِصْرَ. حَاوَلَ النّظامُ عَرقلةَ المظاهراتِ بتعطيل خدمةِ الإنترنتِ والموبايل،لَكِنْ بلا جَدْوى. وتحوّلتْ مظاهراتُ الطّبقةِ الوسطىإِلَى حركةٍ شعبيّةٍ كاسحةٍ. تظاهرَ فيالقاهرةِ وحدَها مئاتُ الآلافِالّذينَاستبسلُوا في الدّفاع عَنْ ميدان التّحرير ضِدَّ هجماتِ قوّاتِ الأمن المركزيّ.وَأَدَّتْ

وحشيّةُ الأمن إلى استشهادِ نحوَ مئةِ متظاهرٍ. وفقدتِ الشّرطةُ سيطرتَها على الموقفِ. وسرعانَ ما اشتعلتِ النّيرانُ في المقرّ الرّئيسيّ للحزبِ الوطنيّ الدّيمقراطيّ وأقسامِ الشّرطةِ.
وأعلنتْ جماعةُ «الإخوان المسلمينَ» بدايةً مِنْ ذَلِكَ اليومِ مشاركتَها في المظاهراتِ، وَهُوَ مَا سَاهَم بقوّةٍ في إنجاحِ الثّورةِ.
فِي اليومِ التّالي ألقى مبارك خطابًا اتّضحَ مِنْهُ أنّ النّظامَ مَازالَ يأملُ في السّيطرةِ عَلَى الموقفِ مِنْ خلالِ تدخّلِ الجيشِ.
وأطلقَ مبارك تهديداتِه للمتظاهرينَ، لكنّه عيّنَ نائبًا لهُ، وَشكّلَ حكومةً جديدةً برئاسةِ عسكريّ سابقٍ، وبدون وزير الدّاخليّةِ العادلي وَحاشيةِ جمال مبارك. نزلَ الجيشُ إلى الشّوارعِ، وتمركزَ في ميدان التّحرير، وأَمَام المنشآتِ العامّةِ، وأحسنَ المتظاهرونَ استقبالَ أفرادِهِ في البدايةِ. وفي الوقتِ نفسِهِ اختفتِ الشّرطةُ مِنَ السّاحةِ تمامًا، وسرعانَ مَاأُطْلِقَتْ عصاباتُ البلطجيّةِ، لترويع المواطنينَ، وإشاعةِ الفوضى في أنحاءِ البلادِ، وَهُوَ ما اعتبرَهُ بعضُ المراقبينَ تكرارًا لما حدثَ في تونسَ من فوضى مصطنعةٍ وانفلاتٍ أمنيّ شاملٍ.
فِي الأيّامِ التّاليةِ تفاقمتِ الأوضاعُ، وَشَاعَتِ الفوضى نسبيًا في أنحاءِ البلادِ. واشتدّتِ الحركةُ الاحتجاجيّةُ، وَحصلتْ عَلَى دعمٍ معنويّ كبيرٍ عِنْدَمَاأَعْلَنَ الجيشُ مساندتَهُ للحقوقِ المشروعةِ للمتظاهرينَ الّذينَ كانُوا قَدْ بدؤوا في تلكَ الأثناءِ يهتفونَ بسقوطِ النّظامِ. ويُشيرُ ڤُوْكَرُ بيرتيسُ إلى الموقفِ العامّ المبدئيّ للجيشِ في مصرَ حيثُ أنّه كانَ دائمًا مخلصًا للدّولةِ والرّئيسِ جميعًا، لكنّه لم يكنْ متحمّسًا لفكرةِ التّوريثِ.
وَيَرَى الكاتبُ أنّ الجيشَ أرادَ التّمييزَ بينَ ولائِهِ للدّولةِ

وإخلاصِهِ لمبارك، حِينَ أكّدَ عَلَى دعمِهِ «المطالبَ المشروعةَ» للمتظاهرينَ.

وبعدَ ثلاثةِ أيّامٍ فقط مِنْ خطابِهِ الأوّل، ألقى مُبارك خطابَهُ الثّاني الّذي حَاوَلَ فيه أن يُؤَمِّنَ لنفسِهِ خروجًا مُشرِّفًا، معلنًا نيّتَه لعدمِ التّرشُّح لِفترةٍ جديدةٍ في سبتمبرَ ٢٠١١م، واستعدادَه لعملِ تعديلاتٍ دستوريّةٍ، ورغبتَه في أن يموتَ فِي مصرَ.

تَأثّرَ كثيرٌ مِنَ المصريّينَ بخطابِ مبارك هذَا. لكنْ سرعانَ مَا تبخّرَ هذاالتّأثّر فِي اليومِ التّالِي، عندما قَامَ نظامُهُ بالتّصعيدِ ضِدَّالثُّوّار:فَبَادَرَ الإعلامُ الرّسميُّبتلطيخِ صُورَةِ الثُّوّار، متّهَمهم بتنفيذِ مؤامرةٍ أجنبيّةٍ. وَبَعْدَ ذَلِكَ تَمَّ إطلاقُ عصاباتِ البلطجيّةِ ضِدَّالثّوّار فيما سُمِّيَ «موقعةَ الجمل»الّتي سقطَ فيها كثيرٌ من الشّهداءِ، وأكثرُ من ألفِ جريحٍ. ويبدو أنّ مشجّعي بعضِ أنديةِكرةِ القدمِ كانواقَدْ بَدؤوا المساهمةَ بقوّةٍ في هذه الانتفاضةِ.

تَلا ذلكَ أسبوعٌ مِنْ الانتظار الحذر، وعدمِ الحسمِ، حرصَ أثناءَه المتظاهرونَ عَلى البقاءِ في ميدان التّحرير تحتَ حمايةِ الجيشِ. وفي الوقتِ نفسِهِ جرتْ محاولاتٌ للحوار بينَ بعضِ الثّوّار والجيشِ والحكومةِ وشَخصيّاتٍمستقلّةٍ. ورفضَالثُّوّارُ ما قدّمه لهم عَمرو سليمان، نائبُ الرّئيسِ، باعتباره جاءَ متأخّرًا جدًّا وغيرَ كافٍ. وفي الوقتِ نفسِهِ بدأتْ سلسلةٌ من الإضراباتِ والاحتجاجاتِ الفئويّةِ. وأبدى العاملونَ في الإعلامِ الحكوميّ تذمُّرًا، ساهَم بعدَ ذلكَ في السّماح بِظهور الثّوّار في وسائلِ الإعلامِ الحكوميّةِ.

بَدَا النّظامُ مَشْلولًا، لا يعرفُ مَاذَا يفعلُ، وَفِي أَيّاتّجاهٍ ينبغي أَن يسيرَ. وَبَدَأَ الجزءُ الأخيرُ مِنْ هَذِهِ الدّراما في العاشر مِنْ

فبرايرَ ٢٠١١م، عِنْدَمَا أعلنَ أحدُ قادةِ الحزبِ الوطنـيّ أنّ مبارك سيتنحّى فِي مساءِ ذلكَ اليومِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ أَلْقَى مُتَحَدِّثٌ باسمِ القوّاتِ المسلّحةِ «البيانَ رقَم واحدٍ»، وَهِيَ لغةُ الانقلاباتِ العسكريّةِ، تحدّثَ فِيهِ مرّةً أخرى عَن «الحقوقِ المشروعةِ للشّعبِ»، دُونَ أن يكشفَ عَنْ أَيّ جَديدٍ. في المساءِ ألقى مُبارك خِطَابًا، في وقتٍ متأخّرٍ جدًّا عَن الموعدِ المعلن، وَكَانَ هُوَ الخطابَ الثّالث مُنْذُ اندلاعِ الثّورةِ، وَقُدِّرَ لَهُ أَنْ يَكُونَ الأخيرَ. كَانَ خِطَابُهُ هَذَا في الواقعِ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ استقالةٍ، وَفي الوَقْتِ نفسِهِ كَانَ يَحملُ رَفضًا بالاعترافِ بِذَلِكَ، وَكَانَ أيضًا شَهادةً عَلَى الفجوةِ العميقةِ الّتي كَانَتْ تفصلُ بَيْنَ مبارك والشّبابِ المصريّ المتظاهر في جَميعِ أنحاءِ البلادِ. وَفي اليومِ التّالي فَقَطْ أَعْلَنَ نائبُ مبارك، عَمرو سليمان، أنّ الرّئيسَ قَرّرَ «تخلّيه عَنْ مَنْصِبِ رئيسِ الجمهوريّةِ»، وَتكليفَ العسكرِ بتولّي مسؤوليّةِ إدارةِ البلادِ.

وَمِثْلَمَا حَدَثَ في تونسَ كَانَ أيضًا مِنَ الملفتِ للنّظر في الحَالَةِ المصريّةِ التّأثيرُ الضّئيلُ للدّولِ المهتمّةِ بِمِصْرَ، خاصّةً الولاياتِ المتّحدةَ الأمريكيّةَ وَدُولَ الاتّحادِ الأوروبيّ، عَلَى مَجرياتِ الأحداثِ في مِصْرَ أثناءَ الثّورةِ. وَستبقى الاتّصالاتُ السّرّيّةُ الّتي تمّتْ في ذَلكَ الوقتِ بينَ عسكر مصرَ والجيشِ الأمريكيّ، خَاصّةً عندما قاَم رئيسُ الأركانِ المصريّ الفريقُ سامي عنّان بزيارةِ واشنطنَ قبلَ إسقاطِ مبارك بأيّامٍ معدودةٍ، غَيْرَ معروفةٍ. لقدْ أسقطَ المصريّونَ رئيسَهُم بأنفسِهم، وبدون أيّ مُساعدةٍ خارجيّةٍ. وبعدَما أسقطَ الشّارعُ المصريُّ النّظامَ الاستبداديَّ، لم يكنْ بوسعِ أيّ نظامٍ عربيّ آخرَ أنْ يتجاهلَ ما يحدثُ في مصرَ.

١١ ـ اَلْحُكْمُ الْعَسْكَرِيُّ وَضَغْطُ مَا بَعْدَ الثَّوْرَةِ

حَقَّقَ المصريّونَ انتصارًا كبيرًا عِندَمَا نَجحُوا في إسقاطِ حُسني مبارك. حَدَثَ هَذَا نتيجةً لانتفاضةٍ شعبيّةٍ. لكنَّ هَذَا لَمْ يمثّلْ ثَوْرَةً ناجحةً قَدِ اكتملتْ، حَتّى وَإِنْ كَانَ إِسْقَاطُ مبارك قَدْ تَسَبَّبَ فِي سَعَادَةٍ غَامِرَةٍ للمصريّين. بَدَأَ المصريّونَ مرحلةً انتقاليّةً فِي الحَادِي عشرَ مِنْ فبرايرَ ٢٠١١م بتفاؤلٍ كبيرٍ، وَآمَالٍ عَرِيضَةٍ، وَغُمُوضٍ يُحِيطُ بِمَا ينتظرُهُمْ مِنْ نِظَامٍ سِيَاسِيٍّ، وَتَوَازُنٍ لِلْقُوَى السّياسيّةِ. كَانَ هُنَاكَ أجواءٌ ديمقراطيّةٌ، لَكِنَّ الواقِعَ لَمْ يكنْ ديمقراطيًّا.

صَحيحٌ أَنَّ إسقاطَ مبارك لَمْ يخلّفْ وراءَهُ فراغًا سياسيًّا، لكنّه لم يأتِ بنظامٍ ديمقراطيٍّ جديدٍ بَدَلًا مِنَ النّظامِ الاستبداديّ القديمِ. فالسّلطةُ انتقلتْ إلى العسكر، أَوْ بالأصحّ إلى «المجلسِ الأعلى للقوّاتِ المسلّحةِ» برئاسةِ المشير طنطاوي الّذي خَدم وزيرًا للدّفاعِ تحتَ رئاسةِ مبارك لمدة عشرينَ عَامًا. وبجانبِ هَذِهِ السّلطةِ التّنفيذيّةِ انتقلتْ أيضًا السّلطةُ التّشريعيّةُ إلى العسكر، بعدَ حَلِّ البرلمان المزوّر. أعلنَ المجلسُ العسكريُّ مِرارًا التزامَه بمساندةِ التّحوّلِ الدّيمقراطيِّ في مِصرَ، وَهُوَ بالفعلِ يواجهُ مهمّةً معقّدةً: ١ ـ حمايةُ الثّورةِ، ٢ ـ التّفاهُم مَعَ الحركةِ الاحتجاجيّةِ، ٣ ـ إيجادُ نظامٍ سياسيٍّ جديدٍ، ٤ ـ التّفاوضُ للخروجِ مِنَ السّلطةِ، ٥ ـ تأمينُ مصالحِ الجيشِ.

وَهَكَذَا لم يكنْ هُنَاكَ توزيعٌ حقيقيّ للسّلطاتِ في بدايةِ المرحلةِ الانتقاليّةِ، ولم يكنْ هناكَ أيّ قوّةٍ حقيقيّةٍ تستطيعُ التّصدّي لسلطةِ العسكرِ المطلقةِ، إلا الثّوّارُ الّذينَ نظّموا أنفسَهم فيما يُعرفُ بـ «ائتلافِ شبابِ الثّورةِ». وَكَانَ عَلَى المجلسِ

العسكريّ أنْ يتعلّم أنّه ليسَ بوسعِه حظرُ المظاهراتِ بمثل هذه البساطةِ، وأنَّ عليه أن يبتعدَ عَنْ مَيدان التّحرير.
في البدايةِ تركَ العسكرُ الحكومةَ الّتي عيّنها مبارك تواصلُ أعمالَها. لكنّهم اضطرّوا بعدَ ذلكَ إلى إقالتِها بعدَ تصاعدِ الاحتجاجاتِ ضدّها. وَقَدِ استشاروا بعضَ الثّوّار قَبْلَ تشكيل الحكومةِ الجديدةِ برئاسةِ عصام شرف. وينقلُ فُوْلكَرُ بيرتيس بعضَ الرّواياتِ غير المؤكّدةِ عنْ تاريخ ِعصام شرف قبلَ توليه وزارةَ الثّورةِ، حيثُ يُقالُ إنّهُ قَدِ استقالَ من منصبِهِ عندما كانَ وزيرًا في عهدِ مبارك، احتجاجًا على الفسادِ (مَع أنّنا رأينا الفسادَ يزدادُ انتشارًا أثناءَ رئاستِه حكومةِ الثّورةِ). وتركَ العسكرُ مباركَ يستمتعُ بالحياةِ شَهرين كاملين في شَرمِ الشّيخ. لكنّ المظاهراتِ الغاضبةَ أرغمتْهم على القبضِ عليه (وَلَوْ شكليًّا) وتقديمه إلى المحاكمةِ. ويشيرُ فُوْلكَرُ بيرتيسُ إلى حِيَلِ العسكر المعهودةِ في خداع ِالشّعبِ حيثُ أنّهم أرادوا بهذهِ الخطوةِ أيضًا تخفيفَ حِدّةِ النّقدِ المتزايدِ لأدائهم الضّعيفِ. في صيفِ ٢٠١١ م سُمِعَتْ لأوّل مرّةٍ هُتافاتٌ ضِدَّالعَسكر في ميدان التّحرير، وأخرى تُطالبُ بإسقاطِ المشير طنطاوي. كَما تَزايدتِ الضّغوطُ عَلى عصام شرف وحكومتِهِ، لعدمِ تحقيق مَطالبِ الثّورةِ، وَهُوَ ما أجبرَ عصام شرف على اتّخاذِ بعضِ الإجراءاتِ لتهدئةِ الثّوّار، فحوّلَ خمسمئةِ لواءٍ إلى التّقاعدِ، وغيّرَ عددًا من وزراءِ حكومتِهِ، وأعلنَ عَن حركةِ تغييرٍ لبعضِ المحافظينَ، كُلّ ذلكَ تلبيةً لـ «إرادةِ الشّعبِ»!!
لَمْ تتّسمْ سياسةُ «المجلسِ العسكريّ» بَعْدَ إسقاطِ مبارك دَائمًا بالحكمةِ، خاصّةً في تَعَامُلِهِ مَعَ المتظاهرينَ والنّقّادِ، حَيثُ أعادَ استخدامَ الوسائلِ القمعيّةِ القديمةِ مِنْ جَديدٍ. في أبريلَ

٢٠١١م مثلًا أصدرتْ محكمةٌ عسكريّةٌ حكمًا قاسيًا على ناشطٍ سياسيّ شابّ انتقدَ المجلسَ العسكريّ. لجأ العسكرُ إلى استشارةِ نحوَ سبعينَ شخصيّةً مصريّةً منتقاةً كوّنوا فيما بعدُ مَا يُعرفُ بـ «المجلسِ الاستشاريّ». بيدَ أنّ اتّخاذَ القراراتِ كانَ يتُّم بدون مناقشاتٍ علنيّةٍ، وَهُوَ مَا كانَ يُثيرُ غَضبَ الشّارعِ ، واستياءَ الثّوّار. مِنْ ذلكَ مَثلًا أنّ العسكرَ سَارَعُوا، بعدَ أسبوعين فقطْ مِنَ استفتاءِ مارسَ ٢٠١١م لإجراءِ تعديلاتٍ دستوريّةٍ، إلى إصدار ما يُعرفُ بـ «الإعلان الدّستوريّ»، وَهُوَ «دستورٌ مؤقّتٌ»، اتّسَم بالغموضِ وَعَدَمِ الشّفافيّةِ، وأثارَ كثيرًا مِنَ الدّهشةِ والنّقدِ لدى المُثقّفِينَ، وَكانَ معبّرًا عَنْ أسلوبِ العسكر الاستبداديّ في الحكمِ.

افترضَ الشّعبُ بصفةٍ عامّةٍ حُسنَ النّيّةِ مِنَ العَسكر: فالجيشُ ليسَ له خبرةٌ بالعمليّةِ الدّيمقراطيّةِ، لكنّ الضّبّاط أعلنوا عَنْ رَغبتهم تسليمَ السّلطةِ لحكومةٍ مدنيّةٍ منتخبةٍ، فهم يعرفونَ أنّهم لم يتعلّموا كيفَ يحكمونَ، وهم يُريدونَ أيضًا تحاشي استيرادِ الصّراعاتِ السّياسيّةِ إلى داخل الجيشِ. لكنْ من المؤكّدِ أنّهم يريدونَ الاحتفاظَ ببعضِ الامتيازاتِ والمصالحِ الخاصّةِ. مِنْ ذلكَ مثلًا إحكامُ السّيطرةِ على عَدَدٍ كبيرٍ من المؤسّساتِ الاقتصاديّةِ المختلفةِ، ناهيكَ عن امتيازاتِ العلاجِ المجانيّ والتّأمين الاجتماعيّ، وتمتّعهم بحصانةٍ مِنَ الملاحقةِ القضائيّةِ لما قد يكونونَ ارتكبوه في الماضي. وَكانَ طنطاوي قَدْ أعلنَ عن نيّتِهِ لمحاربةِ الفسادِ في الجيشِ، لكنْ في إطار المؤسّسةِ العسكريّةِ وأمامَ القضاءِ العسكريّ. كُلُّ هَذَا وغيرُهُ زادَ مِنْ شُكوكِ الكثيرينَ تجاهَ المقاصِدِ الحقيقيّةِ للعسكر. فبعدَ انقلابِ العسكر سنةَ ١٩٥٢م أعلنوا أنّهم لن يبقوا في الحكمِ إلا ستّةَ

أشهرٍ، فإذا بهم يحكمون مِصْرَ ستّةَ عقودٍ.
وَيُشيرُ فُولْكَرُ پيرتيس إلى الخسائرِ الجسيمةِ الّتي تَكَبّدَهَا الاقتصادُ المصريُّ بعدَ الثّورةِ. وَنَحْنُ نضيفُ إلى هَذَا ملاحظةً تكميليّةً بأنّ هَذِهِ الخسائرَ تفاقمتْ بسببِ إصرارِ أقطابِ الدّولةِ القمعيّةِ عَلَى الانتقامِ مِنَ الشّعبِ المصريّ، حَيْثُ أشاعُوا مَا اصْطَلَحَ تسميته «الانفلاتَ الأمنيَّ» وَهُوَ مَا سَاهَمَ في تعطيلِ قطاعاتٍ اقتصاديّةٍ كثيرةٍ، وَأَعَاقَ عودةَ السّياحةِ إلى معدّلاتها الطّبيعيّةِ. وهكذا تكبّدَ الاقتصادُ المصريُّ بَعْدَ اندلاعِ الثّورةِ خَسائرَ كبيرةً (وإنْ كانتْ لا تُقَارَنُ بالمنهوبِ مِنْ ثرواتِ مصرَ). فخسرتِ الدّولةُ مَا كَانَتْ تحصلُ عليه مِنَ السّياحةِ، وَتكلّفتِ الاستجابةُ لمطالبِ بعضِ الفئاتِ رَفْعَ رَوَاتبِهِم ملايينَ الجنيهاتِ، وَمَعَ تكاثرِ الإضراباتِ والاحتجاجاتِ الفئويّةِ خسرتِ الدّولةُ ملايينَ أخرى من الجنيهاتِ، وتناقصَ احتياطيُّ العملةِ الصّعبةِ، وَعادَ أكثرُ مِنْ مئةِ ألفِ عاملٍ مصريّ مِنْ ليبيا بسببِ أحداثِ الثّورةِ اللّيبيّةِ. كُلّ هَذَا جَعَلَ الحكومةَ تتفاوضُ للحصولِ عَلَى قروضٍ مِنَ الخَارجِ.
وَتدهورتِ الحالةُ الأمنيّةُ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ، وانخفضتِ الرّوحُ المعنويّةُ لرجالِ الشّرطةِ، وَصَارَ كثيرٌ مِنْ ضبّاطِ الشّرطةِ يخشونَ الملاحقةَ القضائيّةَ إذا شَاركُوا في قمعِ المظاهراتِ، وذهبَ كثيرٌ من جنودِ الأمنِ إلى بيوتِهِم دونَ أن يعودُوا إلى عملِهِم مرّةً أخرَى، وهربَ كثيرٌ من السّجناءِ أو تمّ إطلاقُ سراحِهِم عمدًا أثناءَ مُظاهراتِ الثّورةِ مِنْ أجْلِ ترويعِ النّاسِ، وارتفعتْ معدّلاتُ الجريمةِ بصفةٍ عامّةٍ. ويرى بعضُ المراقبينَ هَذَا «الانفلاتَ الأمنيَّ» نَوْعًا مِنَ «الثّورةِ

المضادّةِ». كَما ساهَمَ التَّوَتُّرُ الطّائفيُّ والهجماتُ المتتاليةُ عَلَى الأقلّيّةِ القبطيّةِ في إشاعةِ أجواءٍ مِنَ القلقِ وعدمِ الاستقرار. وَمَعَ ذَلِكَ فليسَ مِنَ المؤكّدِ أنْ تَكونَ أعمالُ العنفِ ضِدَّ المسيحيّينَ قَدْ زادتْ بعدَ الثّورةِ. فَمِنَ المعروفِ أنَّ هَذِهِ الأعمالَ كانَتْ شَائِعَةً في عصر مبارك، وَرَاحَ ضحيَّتَها كثيرٌ مِنَ الأبرياءِ كانَ آخرُهم في حادثةِ الاعتداءِ عَلَى «كنيسةِ القدّيسينَ» في الأسكندريّةِ في ليلةِ رأسِ سنةِ ٢٠١٠م. بالطّبعِ لم تتوقّفْ مِثْلُ هَذِهِ الأعمالِ بعدَ الثّورةِ، فقامتْ جماعةٌ سلفيّةٌ متطرّفةٌ في مَايُو ٢٠١١ بشنِّ هجماتٍ عَلى عِدّةِ كنائسَ في منطقةِ إمبابةَ فِي القاهرةِ. كلّفتْ هذهِ الاشتباكاتُ الطّرفين خمسةَ عشرَ قتيلًا مِنَ المسلمينَ والمسيحيّينَ، واحترقتْ كنيسةٌ بأكملها، ولم تتدخّلِ الشّرطةُ. وقدْ أثارتْ هَذِهِ الأحداثُ شكوكَ بعضِ المراقبينَ، وَجعَلَتْهُم يرجّحونَ وجودَ تحالفٍ مسبقٍ بينَ السّلفيّينَ والنّظامِ السّابق. فهؤلاءِ السّلفيّونَ الّذينَ كانوا سلبيّينَ ومسالمينَ تجاهَ نظامِ مبارك، وَصَارُوا الآنَ عدوانيّينَ منذُ اندلاعِ الثّورةِ، يبدونَ وكأنّهم عَلَى علاقةٍ ببعضِ عناصر أمن الدّولةِ، وأنّهم يعملونَ لصالحِ أجهزةِ أمن مبارك في الخفاءِ. ليسَ يوجدُ فِي مصرَ أحدٌ يتوقّعُ حُدوثَ رواجٍ كبيرٍ للمذهبِ السّلفيِّ الّذي تَعُودُ جُذُورُهُ إلى السّعوديّةِ. فالمصريّونَ متديّنونَ بصفةٍ عَامّةٍ، لكنّهم يرفضونَ التّطرّفَ. وَمَعَ ذلكَ فَثَمَّةَ مَخَاوفُ مِنْ إقدامِ السّلفيّينَ عَلَى استغلالِ أجواءِ الثّورةِ وما جلبتْهُ مِنْ حرّيّاتٍ مِنْ أجلِ إضرامِ مَشَاعر الكراهيةِ ضِدَّ المسيحيّينَ. وَمِمَّا ينتظرُه الثّوّارُ مِنَ المجلسِ العسكريّ والحكومةِ، بعدَ محاكمةِ مبارك وعائلتِهِ، القصاصُ لشهداءِ الثّورةِ الّذينَ بلغَ عددُهُمْ حتّى صيفِ ٢٠١١م نحوَ ٨٥٠

شهيدًا. وَقَدْ حَدَثَ تباطؤٌ شديدٌ في مُحاكمةِ قتلةِ الثّوّار ورموز النّظامِ السّابق أدّى إلى اندلاع المظاهراتِ بصورةٍ متكرّرةٍ احتجاجًا على تراخِي القضاءِ في محاكمةِ المجرمينَ، وَهُوَ ما أرهقَ قوّاتِ الشّرطةِ المصابةِ أصلًا بالإحباطِ والانكسار. وَتَحْتَ ضَغطِ المظاهراتِ الغاضبةِ اضطرّ المجلسُ العسكريُّ إلى القبضِ عَلى مبارك وتقديمِه إلى المحاكمةِ، وصدرتْ أحكامٌ بالسّجن لسنواتٍ طويلةٍ عَلَى عَدَدٍ من وزراءِ النّظامِ السّابق الهاربينَ. وَفي أغسطسَ ٢٠١١م بدأتْ محاكمةُ مبارك وابنيه علاء وجمال ووزير الدّاخليّةِ الأسبق حبيب العادلي في قاعةٍ جُهّزَت خصّيصًا لذلكَ. وَكَانَ رؤيةُ مبارك في قفصِ الاتّهامِ نوعًا مِنْ ردّ الاعتبار وشفاءِ غليل أسر الضّحايا. كَما أدّتْ هَذِهِ المحاكمةُ إلى تخفيفِ النّقدِ المتزايدِ لإداءِ المجلسِ العسكريّ. يقينًا كَانَ لهذه المحاكمةِ أيضًا طابعٌ دعائيّ شعبويّ، لكنّها رمزتْ عَلَى الأقَلّ إلى نهايةِ النّظامِ القديمِ. وَمَع ذلكَ تُعتبرُ هَذِهِ المحاكمةُ مهمّةً صعبةً للقضاءِ المصريّ: إذ ينبغي إشباعُ رغبةِ الجماهيرالثّائرةِ في معاقبةِ النّظامِ السّابق، وفي الوقتِ نفسِهِ يجبُ الالتزامُ بأحكامِ القانون. ويُشيرُ فُوْلكَرُ بيرتيسُ إلى أهمّيّةِ التّفاؤل في إنجاحِ الثّورةِ المصريّةِ في المرحلةِ الانتقاليّةِبالذّات. فَفِي مَارسَ ٢٠١١م كَانَ ٨٢٪ مِنَ المصريّينَ مقتنعينَبِأَنَّ الأمورَ في مِصرَ تسيرُ في الطّريقِ الصّحيح. وَقَدْ أجرَى فُوْلكَرُ بيرتيس حواراتٍ مَع صحفيّينَ، وباحثينَ، وسياسيّينَ، ورجال أعمالٍ، ونشطاءِ حقوق إنسان، وموظّفينَ، وسائقي سيّاراتِ أجرةٍ مصريّينَ، بعدَ ذلكَ بشهورٍ، أكدتْلَهُ هَذَا التّفاؤلَ. يقينًا لاتُمثّلُ هَذِهِ اللّقاءاتُ الواقعَ برمّتِهِ، لكنّها تُعطي صورةً عامّةً عَن الأجواءِ

السّائدةِ. وَهِيَ لقاءاتٌ أعطتِ الانطباعَ بوجودِ إحساسٍ عامٍّ بِأَنَّ اندلاعَ الثّورةِ كانَ ضروريًّا، وَأَنَّ المشاكلَ الاقتصاديّةَ والاجتماعيّةَ الّتي تواجهها مصرُ يمكنُ التّغلّبُ عليها، إِذَا واجَهَ المصريّونَ تحدي المرحلةِ الانتقاليّةِ الأكبرَ بشجاعةٍ، واحتفظوا بالتّضامن الّذي أظهرُوه أثناءَ مظاهراتِ الثّورةِ.

١٢ - العَوْدَةُ إِلَى السِّيَاسَةِ. مُشْتَرَكَاتٌ جَدِيدَةٌ، وَاخْتِلَافَاتٌ جَدِيدَةٌ يَحْكي فُوْلكَرُ بيرتيسُ قصّتَهُ مَعَ مَاسِحِ أَحذيةٍ مصريّ في سنّ الخامسةَ عشرةَ قابلَه أَمَام برجي ساويرس عَلَى النّيل، وَأَخبرَهُ أنّهُ شَارَكَ أيضًا في الثّورةِ: «بالطّبع، أنَا كنتُ هُنَاكَ، وأطلقوا عَلَينا الرّصاصَ». ثُمّ يروي لقاءَه بنجيب ساويرس الّذي لَم يكفّ عَن التّباهي بأنّ «عائلته هِيَ الأغنى في مصرَ»، وأنّه شخصيًّا «أكبرُ دافعٍ لِلضّرائبِ في مصرَ». بالطّبع لِم يذكرْ ساويرس للمؤلّفِ شيئًا عَنْ تحالفه مَعَ نظامِ مبارك، وَعَن حُصول عائلتِه عَلى أراضي الدّولةِ بالمجّان، وشركاتِ القطاعِ العامّ بأسعارٍ زهيدةٍ، ورخصةِ المحمول بالفسادِ. ولم يتورّع ساويرس عَن مواصلةِ خداعِهِ المصريّينَ، فذهبَ إلى ميدان التّحرير بدايةً مِنَ الثّامن والعشرينَ من يناير ٢٠١١م، ليشاركَ في ثورةِ الشّعبِ ضِدَّ النّظامِ الّذي يُعدُّ هُوَ نفسُهُ أحدَ أقطابِهِ!! ويشيرُ فُوْلكَرُ بيرتيسُ إلى الصّورةِ الّتي أبهرتِ العالَم أثناءَ مظاهراتِ الثّورةِ، حينَ وقفَ المصريّونَ يدًا واحدةً لإسقاطِ نظامِ مبارك: الأغنياءُ والفقراءُ، المسلمونَ والمسيحيّونَ، الرّجالُ والنّساءُ، الإسلاميّونَ واللّيبراليّونَ. فالمصريّونَ فخورونَ بثورتِهم، وَيعبّرونَ عَنْ ذلكَ بوسائلَ مختلفةٍ منها الرّسوماتُ واليفطُالّتي تُظهرُ اتّحادَ الهلال

والصّليبِ،أو ألوانَ عَلمِ مصرَالثّلاثةَ ، الأحمرَ، والأبيضَ، والأسودَ. وَمَع ذلِكَ يُدركُ المصريّونَ، كَمَا نقلَ فُولْكَرُ پيرتيسُ عَنْ ناشطةِ حقوق إنسانٍ مصريّةٍ: «اجتمعنا عَلَى هدَفٍ واحدٍ، هُوَ إسقاط مبارك. لكنّنا لمْ نتّفقْ عَلَى المستقبل».

وَيَرَى المؤلّفُ أنَّ الانتقالَ إلى نِظامٍ مُتعدّدِ الأحزابِ يسيرُ بالضّرورةِ مَعَ إبراز المواقفِ المتباينةِ، وتأسيسِ الأحزابِ السّياسيّةِ، وإنشاءِ التّكتّلاتِ السّياسيّةِ، وظُهور صراعاتِ القوى الصّريحةِ أو الخفيةِ. مثلُ هذِه التّناقضاتِ أو الانقساماتِ الّتي تميّزُ المرحلةَ الانتقاليّةَ كانتْ قد ظهرتْ في مارسَ ٢٠١١م عندَ التّصويتِ عَلى التّعديلِ الدّستوريّ. فالجزءُ الأكبرُ مِنَ ائتلافِ شبابِ الثّورةِ، والقوى اللّيبراليّةِ والعلمانيّةِ، ومنها عمرو موسى والبرادعي، نادتْ برفضِ هذه التّعديلاتِ الدّستوريّةِ باعتبارهَا غيرَ كافيةٍ وغيرَ صحيحةٍ مِنْ ناحيةِ التّسلسل الزّمنيّ، في الوقتِ الّذي نادَى فيه الإخوانُ المسلمونَ والسّلفيّونَ بقبولِ هذه التّعديلاتِ الدّستوريّة، متّبعينَ في ذلكَ وسائلَ غيرَ شريفةٍ لتعبأةِ أنصارهم، ليسَ فقطْ لاستخدامِهم المساجدَ للدّعايةِ لأنفسِهم، ولكنْ أيضًا لأنّهم أثاروا الانطباعَ بِأنَّ رفضَ التّعديلاتِ سيعني فتحَ الطّريقِ أمَامَ العلمانيّينَ واللّيبراليّينَ لإلغاءِ المادّةِ الثّانيةِ مِنَ الدّستورِ الّتي تنصُّ عَلَى جعلِ الشّريعةِ الإسلاميّةِ المصدرَ الرئيسيّ للتّشريع. وَقَدْ أكدتْ هَذه المواقفُ شكوكَ الكثيرينَ بوجودِ تحالفٍ سرّيّ بينَ العسكر والإسلاميّينَ. وافقَ عَلَى التّعديلاتِ الدّستوريّةِ ٧٧٪، ورفضَهَا ٢٢٪ منَ المصريّينَ، وكَانَ التّصويتُ معبّرًا عَن الثّورةِ وتفاؤلِ المصريّينَ وحماسِهم، حيثُ وصلتْ نسبةُ المشاركةِ إلى أكثرَ مِنْ ٤٠٪، وَهِيَ نسبةٌعاليةٌ ، بعدمَا كانتْ

لا تزيدُ فِي مُعظمِ الأحيان عَنْ ١٠٪ في العقودِ السّابقةِ.

١٣ - الإِخْوَانُ الْمُسْلِمُونَ أَمَامَ اخْتِبَارِ الْوَاقِعِ

لَيْسَ تَعْتَبِرُ «جَمَاعَةُ الإخوانِ المسلمينَ» نَفْسَهَا حِزْبًا دِينِيًّا، بَلْ حَرْكَةً دِينيّةً-اجْتِمَاعِيَّةً. وَيُوجَدُ أيضًا تنظيمٌ نِسائيٌّ تَابِعٌ لَهَا هُوَ جَمَاعَةُ الأَخْوَاتِ الْمُسْلِمَاتِ. أَسَّسَتْ «جَمَاعَةُ الإخوانُ المسلمينَ» بَعْدَ الثّورةِ «حزبَ الحرّيّةِ والعدالةِ»، وَهُوَ مستقلّ شكليًّا، لكنّه عمليًّا يتبعُ الإخوانَ المسلمينَ ولا يحقّ لأعضاءِ الجماعةِ الالتحاقُ بأيّ حزبٍ غيره. يرى الكاتبُ أنّ الكثيرينَ وجدوا في متشدّدي الجماعةِ قيادة هَذَا الحزبِ. يُقدّم حزبُ الإخوانِ نفسَهُ على أنّهُ حزبٌ محافظٌ يتمسّكُ بالشّريعةِ الإسلاميّةِ كمصدرٍ أساسيٍّ للتّشريعِ، ويقرّ في الوقتِ نفسِهِ بالدّولةِ المدنيّةِ الدّيمقراطيّةِ، ويؤكدُ أنّ النّظامَ الدّيمقراطيّ يمثّلُ تطبيقَ مَبادئ الشّريعةِ وفقًا لروحِ العصرِ. وبعكسِ «جماعةِ الإخوانِ المسلمينَ»، لا يستبعدُ حزبُ «الحرّيّةِ والعدالةِ» في برنامجِه إمكانيّةَ تولّي قبطيٍّ أوْ سيّدةٍ رئاسةَ الدّولةِ. وَيشكُّ اللّيبراليّونَ في إمكانيّةِ أن يقومَ الإخوانُ بالتّعاملِ مَعَ «المسيحيّينَ» و«النّساءِ» عَلَى أنّهم مواطنونَ يتمتّعونَ بالحقوقِ نفسِهَا الّتي يتمتّعُ المسلمونَ بها. وَيَقُول فُولكَرُ بيرتيس إنّ بعضَ المصريّينَ يرونَ في الإخوانِ المسلمينَ وريثًا للحزبِ الوطنيّ المنحلّ، ويعتقدونَ أنّ حزبَهُم هُوَ حزبٌ يتحالفُ مَعَ العسكرِ والنّخبِ القديمةِ، ولديه ميولٌ استبداديّةٌ لا يستطيعُ التّخلّصَ منها دائمًا في التّعاملِ مَعَ الصّحفيّينَ الّذينَ ينتقدونَهُ، أو مَعَ مُنتقديهِ مِنْ داخلِ الحزبِ. كَانتْ كلُّ المؤشّراتِ تشيرُ إلى أنّ «حزبَ الحرّيّةِ والعدالةِ»

سيكونُ أقوى حزبٍ سياسيّ في مصرَ. لكنَّ قوّةَ الحزبِ الحقيقيّةَ لم تتّضحْ بَعْدُ، وكذلكَ قدرتُهُ على البقاءِ والاستمرار. فصحيحٌ أنّ «جماعَةَ الإخوان المسلمينَ» قد حافظتْ على تنظيماتِهَا ومؤسّساتِهَا عبرَ عقودٍ مِنَ الحظر أو نصفِ الشّرعيّةِ، وكانتْ في العصر البائدِ أقوى تنظيمٍ سياسيّ معارضٍ، ولديها اليومَ أعضاءٌ أكثرُ مِنْ جميع أعضاءِ سائر الأحزابِ المصريّةِ مجتمعةً. وبرغمِ هَذَا فمازالَ عليها الآنَ إثباتُ وجودِهَا في مواجهةِ الأحزابِ المنافسةِ، وينبغي أنْ تنخرطَ في الحياةِ السّياسيّةِ، وعندئذٍ سوفَ يتُّم تقييمُهَا بناءً عَلَى إنجازاتِهَا.

وَيَرَى الكاتبُ أنّ صراعَ الأجيال داخلَ «جماعةِ الإخوان المسلمينَ» يمثّلُ أكبرَ مَا تواجهُهُ الجماعةُ مِنْ تحدّياتٍ ومخاطرَ. ذلكَ أنّ قياداتِ «جماعةِ الإخوان المسلمينَ» وحزبَهُمْ تبدو وكأنّها نسخةٌ مزدوجةٌ أو مكرّرةٌ من قياداتِ الحزبِ الوطنيّ المنحلّ. فصحيحٌ أنّ كثيرًا من قادةِ «جماعةِ الإخوان المسلمينَ» وَحزبِ «الحرّيّةِ والعدالةِ» مِنَ الشّخصيّاتِ المحترمةِ، وأصحابِ المبادئ الّذينَ عانوا تحتَ النّظامِ البائدِ، وقضى مُعْظَمُهُمْ سنواتٍ طويلةً في المعتقلاتِ، لكنّهم عاشوا وتكيّفوا اجتماعيًّا في ظِلّ الأحداثِ والظّروفِ نفسِهاالّتي عَاشَ فيها قادةُ الحزبِ الوطنيّالمنحلّ، أيْ أنّهم نشأوا وتربّوا مَعَ قضيّةِ الحربِ والسّلامِ مع إسرائيلَ، أكثرَ مِنْ قضيّةِ كيفيّةِ تأمين مكانٍ لمصرَ في عالمِ العولمةِ والاتّصالاتِ.

ويعودُ فُوْلكَرُ بيرتيسُ إلى الحديثِ عَن بوادر الانقسامِ في «جَماعةِ الإخوان المسلمينَ»، فَيُشيرُ إلى وجودِ عددٍ كبيرٍ من

شبابِ «الإخوان المسلمينَ» ضمنَ «ائتلافِ شبابِ الثّورةِ»، وإلى سعي شيوخ الإخوان إلى التّقليل مِن أهمّيّةِ هَذِهِ الانشقاقاتِ. وفي يونيو ٢٠١١م أقدَم عددٌ مِنْ شبابِ الإخوان الّذينَ كَانَ لهم دورٌ فعّالٌ في الحركاتِ الشّبابيّةِ عَلَى تأسيسِ «حزبِ التّيّار المصريّ» الّذي لم يُبرز الشّريعةَ الإسلاميّةَ مصدرًا أساسيًّا للتّشريع، وإنّما اكتفى بالإشارةِ إلى هويةِ مصرَ العربيّةِ-الإسلاميّةِ. ويرى الكاتبُ أنّ «حزبَ التّيّار المصريّ» قَدْ لا يكونُ الأخيرَ في حَركةِ الانشقاقاتِ الّتي بَدَأَتْ تَظْهرُ في صُفُوفِ «جَمَاعَةِ الإخوان المسلمينَ».

وَيُشيرُ فُولْكَرُ بيرتيسُ إلى وَعي الإخوان المسلمينَ بنقاطِ ضعفِهم، حيثُ أنّهم يدركونَ أنّهم لم يصلوا بعدُ إلى مرحلةِ النّضج السّياسيّ الّتي تسمحُ لهم بتولّي شؤون الحكمِ في البلادِ بصورةٍ ناجحةٍ. فليسَ لديهم إجاباتٌ مقنعةٌ، وحلولٌ فعّالةٌ، لجميع قِضايا العصر ومشاكلِهِ، مِثْل موقفِ الإسلامِ مِنَ السّياحةِ، أو مِنَ النّظامِ الماليّ العالميّ. وَيعتقدُ المراقبونَ أنّ الإخوانَ إذا تولّوا شؤونَ الحكمِ في مصرَ، سوفَ يتصرّفونَ بأسلوبٍ براجماتيّ، أو حتّى أنانيّ، ليس فقطْ لإدراكِهم نقاطَ ضعفِهم، ولعدمِ رغبتِهم في الفشلِ، لكنْ أيضًا لأنّهم يعرفونَ مدى تربّصِ الآخرينَ بهم في الدّاخلِ والخارجِ.

ويُشيرُ بيرتيسُ إلى أنّ «الأخوانَ المسلمينَ» يسعونَ إلى تحاشي أيّ صدامٍ مَعَ العسكر. وَكَانُوا قد أعلنوا التزامَهم بمعاهدةِ السّلامِ مَعَ إسرائيل، ورغبتَهم في تشكيل حكومةٍ ائتلافيّةٍ، كَمَا أنّهم تحاشوا الزّجّ بأيّ مرشحٍ لهم لرئاسةِ الجمهوريّةِ في البدايةِ. ولا يستبعدُ بيرتيس أن يفوزَ بانتخاباتِ الرّئاسةِ في مصرَ رئيسٌ ليبراليٌّ، مثلُ عمرو موسى أو

البرادعي، وأنْ يقوَم «الإخوانَ المسلمونَ» بتشكيلِ حكومةٍ يمثّلونَ فيها الأكثريّةَ أو الأغلبيّةَ، بحيثُ يُصبحُ لدينا رئيسٌ ليبراليّ وحكومةٌ إسلاميّةٌ.

١٤ - الثَّوْرَاتُ العَرَبِيَّةُ وَتَأْثِيرُهَا عَلَى العَالَمِ الخَارجِيّ

يُشيرُ فُولْكَرُ بيرتيسُ إلى ملاحظةٍ هامّةٍ في خاتمةِ كتابِهِ، وَهِيَ أنّ دولَ الاتّحادِ الأوروبيّ والولاياتِ المتّحدةَ الأمريكيّةَ بُوغِتَتْ باندلاعِ الثّوراتِ العربيّةِ، وسرعانَ مَا أدركتْ ضعفَ تأثيرها في اندلاعِ هذهِ الثّوراتِ وتطوّرهَا. فدولُ أُوروبَّا وأمريكا تستطيعُ المساعدةَ أو الإعاقةَ، لكنّها لا تستطيعُ حسمَ الأمور، وتقريرَ مصيرِ الشّعوبِ العربيّةِ. وَهَذَا ينطبقُ أيضًا عَلَى ليبيا. فصحيحٌ أنّ عدَم تدخّلِ النّاتو كَانَ يمكنُ أن يطيلَ من عُمْرِ نظامِ القذّافي، لكنّ مستقبلَ ليبيا، وَشكلَ الحكمِ فيها، لَنْ يقرّرَه أحدٌ غيرُ اللّيبيّينَ أنفسِهم. وَيَرَى الكاتبُ أنّ التّأثيرَ المحدودَ لأوروبّا والمجتمعِ الدّوليّ عَلَى اندلاعِ الثّوراتِ العربيّةِ وتطوّرها يُعْتَبَرُ ميزةً. ذلكَ أنّ روعةَ الثّورتين المصريّةِ والتّونسيّةِ لا تكمنُ في سلميّتهما فحسبُ، بَلْ أيضًا في كونهما نابعتين مِنَ الشّعبِ، وَكانتا بريئتين مِنْ تهمةِ العَملِ وفقًا لأجندةٍ أجنبيّةٍ. بيدَ أنّ غيابَ تأثيرِ أوروبّا لا يعني تنصُّلَهَا مِنَ المسؤوليّةِ. ويُشيرُ الكاتبُ هُنَا إِلَى أنّ شَبابَ الثّورةِ المصريّةِ لا يكنّونَ أيَّ مَشَاعرِ كراهيةٍ تجاهَ أوروبا، بَلْ لديهم تصوّراتٌ محدّدةٌ لما ينتظرونَه مِن أوروبّا في المرحلةِ المقبلةِ: ١ - استثماراتٌ، ٢ - المساعدةُ في بناءِ نظامٍ ديمقراطيّ، ٣ - تسهيلُ الحصولِ عَلَى تأشيرةِ الاتّحادِ الأوروبيّ

والواقعُ أنّ أوروبّا، مِنْ وجْهَةِ نظر الكاتبِ، ليسَ لديها مسؤوليّةٌ تجاهَ المنطقةِ العربيّةِ فَحَسْبُ، بَلْ لها أيضًا مصالحُ هناكَ ينبغي الحفاظُ عليها من خِلال توسيع اِلتّعاون مَعَ الدّول العربيّةِ. وينتقدُ ڤُوْلكَرُ بيرتيسُ الباحثينَ الغربيّينَ الّذينَ سارعُوا إلى مُهاجمةِ الثّوراتِ العربيّةِ، مُدّعينَ أنّها تُمثّلُ خطرًا على أوروبّا. فالثّوراتُ العربيّةُ إنْ كانت تمثّلُ خطرًا على دول جنوبِ أوروبا، بسببِ الهجرةِ غير الشّرعيّةِ، فَهُوَ خطرٌ مؤقّتٌ عابرٌ. لكنَّ هَذِهِ الثّوراتِ سيكونُ لها نتائجُ إيجابيّةٌ جدًّا عَلَى أوروبّا في القريبِ العاجل، والمدى المتوسّطِ والبعيدِ، حتّى ولو انحصرتْ هذه الفوائدُ في أنّ الدّول العربيّةِ عندما تُصبحُ دولًا ديمقراطيّةً تحترمُ مواطنيها ولا تنتهكُ حقوقَهم الإنسانيّةَ ، فَهِيَ ستكونُ لا محالةَ شَريكًا وَجارًا أفضلَ لأوروبا مِنَ الأنظمةِ الاستبداديّةِ الّتي حكمتِ العالَم العربيَّ حتّى الآنَ. هَذِهِ لا محالةَ ملاحظةٌ مُهمَّةٌ ونزيهةٌ ومحترمةٌ مِنَ الكاتبِ الفاضل، نشكرُهُ عَلَيْهَا.

وَيستعرضُ الكاتبُ مصالحَ الدّول الكبرى في مِنطقةِ الشّرق الأوسطِ، موضّحًا أنّ أوروبّا وحدَهَا ينبغي أن تكونَ أكثرَ هَذِهِ القوى الدّوليّة اهتمامًا بمنطقةِ الشّرق الأوسطِ، ذلكَ لأنّ مَصالحَ القُوى الخارجيّةِ الأخرى هِيَ مصالحُ منتقاةٌ ومقتصرةٌ على جوانبَ معيّنةٍ دونَ غيرها. فالولاياتُ المتّحدةُ الأمريكيّةُ تنحصرُ مصالحُهَا الاستراتيجيّةُ في منطقةِ الخليج اِلعربيّ وإسرائيلَ وجيرانِها المباشرينَ، في المقامِ الأوّل. وستظلّ الولاياتُ المتّحدةُ نشطةً في هَذين المحيطين، دفاعًا عَن مصالحِهَا، وَهُوَ مَا تنتظرُهُ منها أيضًا هذه الدّولُ في المنطقةِ، خُصُوصًا دولَ الخليج اِلّتي تخشى مِنَ المطامع اِلإيرانيّةِ. بَيْدَ

أنّ مصالحَ واشنطنَ في منطقةِ البحر المتوسّطِ محدودةٌ. فمصرُ ستظلّ بجانبِ إسرائيلَ شريكا استراتيجيًّا للولاياتِ المتّحدةِ. لكنّ اهتمامَ الولاياتِالمتّحدةِ بسائر دول هذِهِ المنطقةِ يعتبرُ ثانويًّا. وَقَدِ اتّضحَ هَذَا أثناءَالثّورةِاللّيبيّةِ، حيثُ تركَ الأمريكيّونَ الأمرَ برمّتهِ للأوروبيّينَ.

أمّا الصّينُ والهندُ وكوريّاالجنوبيّةُ ، فيلاحظُ فُوْلكَرُ بيرتيس تزايدَ مصالِحِهَا بسرعةٍكبيرةٍ في المنطقةِ العربيّةِ. فالصّينُ ضاعفتْ تبادُلَهَا التّجاريَّ مَعَ دول المنطقةِ العربيّةِ عشرَ مرّاتٍ خِلالَ العقدِ الأوّل مِنَ القرن الحادي والعشرينَ، وضاعفتْهُ الهندُ ثماني مرّاتٍ، وكوريا الجنوبيّة ثلاثَ مرّاتٍ. وَتُعَانِي هَذِهِ الدّولُالثّلاثُ عَجزًا في ميزانِها التّجاريّ مَعَ دول المنطقةِ العربيّةِ، وَهُوَ مَا يَعني أنّ لَها مصلحةً كبيرةًلزيادةِ صَادراتِها إلى الدّول العربيّةِ، والحصول على مزيدٍ مِن العقودِ للمشروعاتِالكبيرةِ في مجال التّشييدِ والبنيةِالتّحتيّةِ. بيدَ أنّ اهتمامَها بالتّطوّراتِ السّياسيّةِ في المنطقةِ ليسَ كبيرًا. أوروبّاإذًا هِيَ اللّاعبُ الدّوليّ الوحيدُالّذي تربطُهُ بالمنطقةِ العربيّةِ مصالحُ: ١ـسياسيّةٌ ، ٢ ـ سياسيّةٌأمنيّةٌ ، ٣ـتجاريّةٌ ، ٤ـاقتصاديّةٌ ، ٥ـ مستقبليّةٌ خَاصّةٌبالتّطوّراتِ السّياسيّةِ.يَقُولُ فُوْلكَرُ بيرتيس: «نَحْنُ جِيرَانٌأَقْرَبُونَ».

بروحٍإنسانيّةٍمتجرّدةٍ يُشيرُ فولكر بيرتيس إلى المجالاتِالّتي تستطيعُ أوروبا مساعدةَ العربِ فيها: ١ ـ توطيدُ دعائمِ الدّيمقراطيّةِ، ٢ ـ بناءُ اقتصادٍ قويٍّ، ٣ ـ دعمُ الاستقرار الاجتماعيّفالثّوراتُ العربيّةُأظهرتِ الأحوالَ المزريةَ في العالمِ العربيّ سياسيًّا، وَاجتماعيًّا، وَاقتصاديًّا. وَيَرَى الكَاتبُ أنّ الهدفَ هنا ينبغي أن يكونَ مساعدةَ حكوماتِالثّوراتِ

العربيّةِلتّغلّب عَلَى مَاوَرَثَتْهُ مِنَ الأنظمةِ الاستبداديّةِ مِنْ مشاكلَ وأزماتٍ وتحدّياتٍ. وَيُشِيرُ الكاتبُ إلى أهمّيّةِ إدخال إصلاحاتٍ عَلى المؤسّساتِ السّياسيّةِ. ذَلكَ أنّ الدّولَ الّتي تُوَفّرُ لمواطنيهَا: ١ - الحرّيّاتِ الشّخصيّةَ ، ٢ - وحقوقَ الإنسان، ٣ - والقضاءَ العادلَ، ٤ - والمشاركةَ الدّيمقراطيّةَ ، ٥ - والشّفافيّةَ ، هِيَ أيضًا دولٌ تكسبُ ثقةَ مواطنيها، وتجعلُهم يطلقونَ العنانَ لطاقاتِهم الإبداعيّةِ.

وَمساعدةُ أوروبّا هُنَا، كما يقترحُ فولكر پيرتيس، ينبغي أن تتجاوزَ الأقوالَ الجميلةَ إلى الأفعالِ الملموسةِ. وَيُطَالِبُ فُولْكَرُ پيرتيسُ أوروبّا باتّخاذِ مواقفَ إيجابيّةٍ واضحةٍ تجاهَ الثّوراتِ العربيّةِ، ويناديِ الأوروبّيّينَ بترتيبِ أولويّاتهم بحيث يُقدّمونَ مساعداتِهم أوّلًا إلى تلكَ الدّولِ العربيّةِ الّتي تخلّصتْ مِنَ الاستبدادِ وتتوجّهُ نحوَ الدّيمقراطيّةِ، وترغبُ في إرساءِ قواعدِهَا. وَهَذَا يَعنِي، عَلَى حدّ قول فولكر پيرتيس، تسخيرَ جزءٍ مِنَ المواردِ الأوروبيّةِ لدعمِ التّحوّلِ الدّيمقراطيّ في مِصرَ وتونسَ في المقامِ الأوّلِ، لِأَنَّ نجاحَ هاتينِ الثّورتينِ في إرساءِ قواعدِ الدّيمقراطيّةِ سيكونُ له آثارٌ إيجابيّةٌ عَلَى المنطقةِ برمّتِهَا. وَيُوَاصِلُ فولكر پيرتيس تقديمَ نصائحِه للدّولِ الأوروبيّة، مقترحًا أَنْ تقومَ أوروبّا بمكافأةِ تلكَ الدّولِ المتحوّلةِ إلى الدّيمقراطيّةِ، والعازمةِ على إرساءِ قواعدِها، بتقديمِ وعودٍ صادقةٍ لها بتوثيقِ علاقاتها مَعَ أوروبّا. أيْ أَنَّ أوروبّا ينبغي أن تقتربَ أكثرَ من تلكَ الدّولِ العربيّةِ الّتي قهرتِ الاستبدادَ، وتسعى إلى إنشاءِ مجتمعاتٍ ديمقراطيّةٍ حديثةٍ. مِنْ ذَلِكَ مثلًا الاستفادةُ مِنْ مُمَيَّزاتِ السّوقِ الأوروبّيّةِ، أو حتّى الانضمام بصورةٍ أو بأخرى إلى الاتّحادِ الأوروبّي.

وَيُعَدِّدُ فولكر پيرتيس بعضَ المجالاتِ الّتي يستطيعُ الأوروبيّونَ مساعدةَ العربِ فيها: ١ -تنظيمُ الانتخاباتِ، ٢ - مراقبتُها، ٣ - إعادةُ تأهيلِ الشّرطةِ والقضاءِ، ٤ - سنُّ قوانينِ عملٍ جديدةٍ، ٥ - وضعُ قواعدَ جديدةٍ للإضراباتِ، ٦ - وضعُ أنظمةٍ جديدةٍ للتّأمينِ الاجتماعيّ.

ويرى فولكر پيرتيس أنّ العالَمَ العربيَّ ستزدادُ أهمّيّتُهُ بالنسّبةِ إلى أوروبّا. فالتّطوّراتُ الدّيموجرافيّةُ (السّكانيّة) في الدّولِ العربيّةِ ستساهمُ إيجابيًّا في ذلِكَ. فالشّبابُ يمثّلُ نسبةً كبيرةً من سكّانِ الدّولِ العربيّةِ، وَهُوَ ما يجعلُ هَذِهِ الدّولَ أكثرَ ديناميكيّةً ونشاطًا. وهنا يمكنُ لأوروبّا وشركاتِهَا المساهمةُ في توفيرِ حاجاتِ هذه الأجيالِ الشّابةِ الصّاعدةِ مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشْرَبٍ وَعِلَاجٍ واتّصالاتٍ وَمواصلاتٍ.

١٥ - الباحِثُ فُولْكَرُ پِيرْتِيسَ فِي الْمِيزَانِ

العَلاقةُ بينَ الشّرقِ والغربِ متوتّرةٌ. هُنَاكَ مفكرون يُؤَجّجُونَ مَشَاعِرَ الكَرَاهِيَةِ، ويبحثونَ عَمَّا يُفَرّقُنَا، وَثَمّةَ بَاحِثُونَ يدعونَ إلى التّفاهمِ وَالتّعاونِ، وَيبحثونَ عَمَّا يَجمَعُنَا. الباحثُ الألمانيُّ فولكر پيرتيس يبدو لي أنّهُ مِنَ الفريقِ الأخيرِ. هُوَ يُريدُ الخيرَ للإنسانيّةِ. يدعو الغربَ إلى التّعاونِ مَعَ العربِ. يَنْأَى بنفسِهِ عَنِ الطّعنِ والشّتمِ والعنصريّةِ. يُمَارِسُ النّقدَ الذّاتيّ، مِنْ خلالِ نقدِهِ لبعضِ مَواقفِ الغربِ مِنَ العربِ. ينظرُ بإعجابٍ إِلَى الثّوراتِ العربيّةِ. يقينًا هَذَا يُسْعِدُ العربَ، بعدما اكتووا طويلًا بنارينِ مِنَ الخَارجِ والدّاخلِ: نَارُ الاستعمارِ والعنصريّةِ مِنَ الخارجِ، وَنَارُ القمعِ والقهرِ من الدّاخلِ. فولكر پيرتيس يستحقّ مِنْ جميعِ دعاةِ التّفاهمِ والتّعاونِ بينَ الشّرقِ والغربِ

كُلَّ التّقدير والتّشجيع والتّوقير.
ليسَ يحتاجُ عَالِمُنَا في القرن الحادي والعشرين إلى مزيدٍ مِنَ الكراهيةِ، والمطاعن، ونفي الآخر، والعنصريّةِ. بلْ يحتاجُ إلى التّعاون، والتّفاهم، والتّسامح ، والحبّ. لقد أشبعَ الغربيّونَ الإسلامَ شتمًا وطعنًا على مَرّ العصور. كفاناكراهيةً ، وكفانا سفكًا للدّماء، وكفانا تضليلًا. نريد أنْ نبدأ صفحةً جديدةً منَ التّعاونوالتّسامح ، والاحترامِ. ونختُم كلامَنَا هُنَابالإشارةِ إلى نَماذجَ مِنْ مواقفِ الغربيّينَ السّلبيّةِ والإيجابيّةِ مِنَ الإسلامِ والعربِ:

فِي القرن الثّامن الميلاديّقَالَ يُوحَنّا الدّمشقيُّ (توفّي عامَ ٧٥٠م) Johannes Damaszenus في كتابِهِ: „de haeresibus“ إنّ محمّدًا كانَ نبيًّا كاذبًا. وقالَ بطرس المبجّلُ Petrus Vernerabilis (توفّي عامَ ١١٥٦م) في كتابِهِ „Gegen die abscheuliche Ketzerei der Sekte der Sarazener“ إنّ رسولَ الإسلامِ كانَ كذّابًا. وَقَالَ توماس الأكوينيّ Thomas von Aquin (توفّي عامَ ١٢٧٤م) فيكتابِهِ: „Summa de veritate catholicae fidei contra Gentiles“ إنّ رسولَ الإسلامِ كان يمزجُ الحقائقَ بالأكاذيبِ. وَقالَ مارتن لوثّر Martin Luther (توفّي عامَ ١٥٤٦م) إنّ القرآنَ مملوءٌ بالأكاذيبِ. وَقالَ چورج سال George Sale (توفّي عامَ ١٧٣٦م) في مقدمةِ ترجمتِه الإنجليزيّةِ لمعاني القرآن إنّ محمّدًا هُوَالّذي كَتَبَ القرآنَ، حَيثُ عنوّنَ ترجمته بـ : «قرآنُ محمّد». وَقَالَ مراتشي Lidovico Marracci (توفّي عامَ ١٧٠٠م) إنّ محمّدًا كَانَ مخادعًا وَمؤلّفَ كتابٍ كلّه سخافاتٌ وأكاذيبُ.

وَقَالَ بريدو Humphrey Prideaux (توفّي عام ١٧٢٤م) إنّ محمّدًا كَانَ مُجرمًا. وَقَالَ تيودور نولدكه Theodor Nöldeke (توفّي عام ١٩٣٠م) إنّ محمّدًا لَمْ يكنْ متمكنًا مِنَ اللّغة العربيّة. وَقَالَ إيجانتس جولدتسيهر Iganz Goldziher (توفّي عام ١٩٢١م) إنّ مُحمّدًا سَرقَ مِنَ اليهوديّةِ قَواعدَ الإسلامِ. وَقَالَ شبرنجر Aloys Sprenger (توفّي عام ١٨٩٣م) إنّ محمّدًا كَانَ مصابًا بالهيستريا. وَقَالَ لامنس Henri Lammens (توفّي عام ١٩٣٧م) إنّ محمّدًا لم يكنْ صَادِقًا. وَقَالَ جوستاف ڤايل Gustav Weil (توفّي عام ١٨٨٩م)، وهارتفيج هيرشفيلد Hartwig Hirschfeld (توفّي عام ١٩٣٤م) إنّ جذورَ الإسلامِ جميعًا يهوديّةٌ. وَقَالَ معاصرُنَا الألمانيّ يوحنا كريستوف بيرجل J. Ch. Bürgel لَوْ كَانَ مُحمّدٌ رسولًا صَادِقًا، لما أكثرَ مِنْ زيجاتِهِ. وَقَالَ وليام مونتجومري وات W.M. Watt (توفّي عام ٢٠٠٦م) إنّ رسولَ الإسلامِ كَانَ عاجزًا عَنْ كبحِ شهواتِهِ. وَقَالَ مرجوليوث D. S. Margoliouth (توفّي عام ١٩٤٠م) إنّ محمّدًا كانَ بلا ضميرٍ. وَقَامَ دانته Dante Alighieri (توفّي عام ١٣٢١م) بوضعِ رسولِ الإسلامِ (صلعم) في جحيمِ «الكوميديا الإلهيّة». وَقَالَ موير Sir William Muir (توفّي عام ١٩٠٥م) إنّ الشّيطانَ ضلّلَ مُحمّدًا. وَقَالَ جريمه Hubert Grimme (توفّي عام ١٩٤٢م) إنّ محمّدًا لم يكنْ نَبِيًّا، بَلْ كَانَ مصلحًا اجتماعيًّا. وَقَالَ معاصرنا الألمانيّ يوسف فان إس Joseph van Ess إنّ رسولَ الإسلامِ ظلّ يعبدُ الأصنامَ أربعينَ عامًا، وإنّ إلهَ المسلمينَ يتكلّمُ اللّغةَ العربيّةَ!

أمّا المنصفونَ للإسلامِ من الغربيّينَ، فيحقّ لنا أن نفخرَ أنّهم جميعًا كانوا عباقرةَ زمانِهم. فها هُو ريلاند Adrian Reland (توفّي عام ١٧١٨م) يتّهُم الغربيّينَ بإخفاءِ الحقائق عن شعوبِهم، ويُطالبهم بفهمِ الإسلامِ كما يفهمُه المسلمونَ أنفسُهم. وألّفَ جوته Johann Wolfgang von Goethe (توفّي عام ١٨٣٢م) بجانبِ «الدّيوان الشّرقي للمؤلّفِ الغربيّ»: «نشيدَ محمّدٍ»، حيثُ أظهرَ فيه رسولَ الإسلامِ (صلعم) هاديًا للبشر. وكانَ فريدريخ رويكرت Friedrich Rückert (توفّي عام ١٨٦٦م)، أعظمُ شعراءِ ألمانيا عَلَى الإطلاق، قَدْ أدركَ عظمةَ الإسلامِ وسموَّ رسولِهِ (صلعم)، فكرّسَ حياتَهُ من أجل وضعِ أروعِ ترجمةٍ ألمانيّةٍ لمعاني القرآن، ناهيكَ عن ترجمتِه لمقاماتِ الحريريّ والمعلّقاتِ. أمّا ريلكه Rainer Maria Rilke (توفّي عام ١٩٢٦م)، فقدْ كانَ شاعرًا ألمانيًّا موهوبًا، نظّم قصيدةً رائعةً عَن أوّل لقاءٍ بينَ رسولِ الإسلامِ (صلعم) وجبريلَ. وكانَتِ المرحومةُ عميدةُ الاستشراق الألمانيّ أنّا ماري شيمل Annemarie Schimmel (توفّيت عام ٢٠٠٣م) لا تخفي إعجابَها برسول الإسلامِ (صلعم) الّذي خصّته بأكثرَ مِن كتابٍ. وَاعتبرَ الإنجليزيُّ كارليل Thomas Carlyle (توفّي عام ١٨٨١م) رسولَ الإسلامِ (صلعم) بطلًا، هَذَا برغم أنّ كارليل هَاجَم القرآن!! وأشارَ الشّاعرُ ليسنج Gotthold Ephraim Lessing (توفّي عام ١٧٨١م) إلى الأكاذيبِ الشّائعةِ في الغربِ عَنْ رسولِ الإسلامِ (صلعم). أمّا كانط Immanuel Kant (توفّي عام ١٨٠٤م)، فقدِ اعتبرَ أنّ الإسلامَ والمسيحيّةَ واليهوديّةَ جميعًا هِيَ تعبيرٌ عن الدّين الصّادق. وقال لايبنتس

Gottfried Wilhelm Leibniz (توفّي عام ١٧١٦م) في كتابِهِ „Theodicee“ إنّ رَسُولَ الإسلامِ لم يبتعدْ عَن القواعدِ الكبرى للأديان، وأنّ أصحابَهُ حَاربوا الوثنيّةَ. وَقَالَ معاصرُنَا جيرنوت روتر Gernot Rotter في تقديمِه لترجمتِه الرّائعةِ للسّيرةِ النّبويّةِ: «ليسَ يوجدُ شيءٌ يمكنُ أنْ يساهَم في تحقيقِ التّفاهمِ بينَ الإسلامِ والغربِ أفضلُ مِنْ ترجمةِ سيرةٍ نبويّةٍ بقلمِ كاتبٍ مسلمٍ إلى اللّغةِ الألمانيّةِ». ا. هـ.